الأدب العصري

مقالات مختارة في العلم والأدب والفلسفة والاجتماع

اختاره

محمد محمد عبد المجيد

الملتزم

طبع بمطبعة السعادة

'Abd al-al-Majīd Muḥammad
Muḥammad

الأدب العصري

مقالات مختارة فى العلم والأدب والفلسفة والاجتماع

اختاره

محمد محمد عبد المجيد

الملتزم

عطية محمد على الكتبى

al-Adab al-ʻaṣrī

طبع بمطبعة السعادة



السيد مصطفى لطفى المنفلوطى

السيد مصطفى لطفى المنفلوطى

ولد السيد مصطفى فى مدينة منفلوط سنة ١٨٧٦م وهو ابن السيد محمد لطفي . حفظ القرآن صغيراً فأدخله والده سنة ١٨٨٨ م الازهر الشريف وشغف بالعلوم الأخلاقية والأدبية فاشتغل بها ولحق بالمرحوم الشيخ محمد عبده ولصق به وأكثر من مصاحبته له فى درسه ومنزله عشرة سنين كاملة فاستفاد منه كثيراً وكان الامام يتوسم فيه ذكاء ومنفعة للأمة . ولما مات رحل السيد الى منفلوط وراسل جريدة المؤيد سنة ١٩٠٨ فحازت قبولا كبيراً عند قرائها . وله كتاب (النظرات) جمع فيه أحسن مقالاته وقصائده فقامت له ضجة كبيرة بين جميع الأدباء وليس ذلك عجيباً وله (رواية مجد ولين والعبرات والشاعر)

فهو كاتب قدير وشاعر ماهر نثره يأخذ بمجامع القلوب ونظمه جيد جداً وهو أحد الكتاب الأدباء المعدودين فى مصر أوكما قال لطفي بك السيد هو من أشياخ البيان فى مصر . يطرق

الموضوعات البعيدة فيقربها من القارىء ويجعله يظن أنها من مألوفاته ولم تكن كذلك من قبل

قال أحد الأدباء المنفلوطي أول كاتب فى مصر من كتاب المأساه وأقدر الكاتبين على إدخاله المعانى فى أذهان القارئين وصب الأفكار الحديثة فى الألفاظ القديمة وسبكها فى قوالب عربية محكمة وهو من كتاب الفضيلة الذين يثأرون لها من الناس كما يثأر البدوى من قاتل أبيه

المختار من نثره

غدر المرأة

يقصون في القصص الخرافية أن حكيما من حكماء اليونان كان يحب زوجته حبا ملك عليه عقله وقلبه وأحاط به إحاطة الشعاع بالمصباح المتقد. وكان يمازج هناءه الحاضر شقاء مستقبل يسوقه إلى نفسه الخوف من أن تدور الأيام دورتها فيموت ويفلت من اشراكه ذلك القلب الذي كان مغتبطا باعتلاقه إلى صائد آخر يعتقله من بعده. وكان كلما أبث زوجته سره وشكا إليها ما يساور قلبه من ذلك الهم حنت عليه وعللته بمعسول الأماني أقسمت له بكل محرجة من الايمان أنها تسترد هبة قلبها منه حيا وميتا. فكان يسكن الى ذلك سكون الجرح الذرب تحت الماء البارد ثم يعود إلى هواجسه ووساوسه. حتى مر في بعض روحاته إلى منزله في ليلة من الليالي المقمرة بمقبرة المدينة فبدا له أن يدخلها ليروح عن نفسه هموم الموت بوقفة بين قبور الموتى. وكثيراً ما يتداوى شارب الخمر بالخمر ويدفع الخوف الخائف الى موطن خوفه ويلذ للجبان وهو يرتعد فرقا الاصغاء الى حديث الأفاعي وقصص الجان، فرأى في بعض مسالكه بين تلك القبور أمرأة متسلبة جالسة أمام قبر جديد لم يجف ترابه وبيدها مروحة

من الحرير الأبيض مطرزة بأسلاك الذهب تهزها يمنة ويسرة لتجفف بها بلل ذلك التراب. فعجب بشأنها وتقدم إليها فارتاعت المرأة ثم أنست به حينما عرفته فسألها ما شأنها وما مقامها هنا ومن هذا الدفين وما الذى تفعل ؟ فأبت أن تجيبه عما سأل حتى تفرغ من شأنها : فجلس إليها، تناول منها المروحة ومازال يصنع صنيعها حتى جف التراب فحدثته أن هـذا الدفين زوجها وأنه دفن منذ ثلاثة أيام وأنها منذ الصباح جالسة مجلسها هذا لتجفف تراب قبره وفاء بيمـين كانت أقسمتها له فى مرض موته أنها لا تتزوج من غيره حتى يجف تراب قبره وأن هذه الليلة هى موعد زواجها من زوجها الثانى فأبى لها وفاؤها لهذا الدفين الذى كان يحبها ويحسن إليها أن تحنث بيمين أقسمتها له أو تحنث بما عاهدته عليه ثم قالت هل لك ياسيدى أن تقبل هذه المروحة هدية منى إليك وجزاء لك على حسن صنيعك معي . فتقبلها منها شاكراً بعد أن هنأها بزواجها الجديد ثم انصرف وليس وراء ما به من الهم غاية ومشى فى طريقه مشـية الرائح النشوان يحدث نفسه ويقول : انه أحبها وأحسن إليها فلما مات جلست فوق قبره لا لتبكيه ولا لتذكره عهده بل لتتحلل من الزواج من زوجها الثاني . وكأنما اتخذت من صفائح قبره مرآة تصقل امامها جبينها وتصفف طرتها وتلبس حليتها بين سمعه وبصره للزفاف إلى غيره

وما زال يحدث نفسه بمثل ذلك حتى رأى نفسه فى منزله من حيث لا يشعر ورأى زوجته ماثلة أمامه مرتاعة لمنظره المحزن فقال لها ان امرأة خائنة أهدت إلىّ هذه المروحة فقبلتها منها لاهديها اليك لأنها أداة من أداة الغدر والخيانة وأنت أولى بها مني. ثم أنشأ يقص عليها قصة المرأة حتى أتى عليها فغضبت وانتزعت المروحة من يده ومزقتها وأنشأت تسب تلك المرأة وتنكى عليها غدرها وخيانتها وتلقبها بأخش الألقاب وأقبحها ثم قالت ألا يزال هذا الوسواس عالقاً بنفسك ما دمت حياً وهل تحسب أن امرأة ترضى لنفسها بما رضيت به لنفسها تلك المرأة الغادرة؟ فقال لها إنك أقسمت ألا تتزوجى من بعدى فهل تفين بعهدك قالت نعم ورمانى الله بكل ما يرمى به الغادر إن أنا غدرت. فاطمأن لقسمها وعاد الى راحته وسكونه

مضى على ذلك عام ثم مرض الرجل مرضاً شديداً فعالج نفسه فلم يجد العلاج حتى أشرف فدعا زوجته وذكرها بما عاهدته عليه فاذكرت فما غربت شمس ذلك اليوم حتى غربت شمسه. فأمرت ان يسجى فى قاعته حتى يحتفل بدفنه فى اليوم الثانى ثم خلت بنفسها فى غرفتها تبكى عليه وتندبه. وإنها لكذلك اذ دخلت عليها الخادم واخبرتها أن رجلا من تلاميذ مولاها حضر الساعة من بلدته لما سمع بأمر مرضه فاخبرته خبر موته فصعق فى مكانه

حزناً ووجداً ولا يزال عند باب المنزل مطرحا لا تدرى ما تصنع
فى أمره . فأمرتها ان تذهب به الى غرفة الأضياف وأن تتولى
شأنه حتى يستفيق . ثم عادت الى بكائها ونحيبها فلما مر الهزيع
الثانى من الليل دخلت عليها الخادم مرة اخري مرتاعة مولهة
وهى تقول رحمتك واحسانك يا سيدتى فان ضيفنا يعالج من آلامه
وأوجاعه عذابا أليما وقد حرت فى أمره وما أحسبه أن اغفلنا أمره
ساعة واحدة الا هالكا . فراعها الخبر فقامت تتحامل على نفسها
حتى وصلت الى غرفة المريض فرأته مسجى على سريره والمصباح
عند رأسه فاقتربت ونظرت فى وجهه فرأت أبدع سطر خطته
يد القدرة الالهية فى لوح المقادير فتخيلت ان المصباح الذى أمامها
قبس من ذلك النور المتلألئ فى ذلك الوجه المنير وتمثلت كأن
أنينه نغمة موسيقية محزنة ترن فى جوف الليل البهيم . فأنساها
الحزن على المريض المشرف الحزن على الفقيد الهالك وعناها أمره
فلم تترك وسيلة من وسائل العلاج الا توسلت بها اليه حتى استفاق
ونظر الى طبيبه الراكع بجانب سريره نظرة الشكر والثناء . ثم
أنشأ يحدثها عن نفسه كل شيء فعرفت من أمره كل ما كان يهمها
ان تعلمه . فعرفت مسقط رأسه وصلته بزوجها وأنه فتى غريب فى
قومه لا أب له ولا أم ولا زوجة . وهنا أطرقت برهة طويلة عالجت
فيها من هواجس النفس ونوازعها ما عالجت ، ثم رفعت رأسها

وأمسكت بيده وقالت ، انك قد ثكلت أستاذك وأنا ثكلت زوجى فأصبح همنا واحداً فهل لك ان تكون عوناً لى وأكون عوناً لك على هذا الدهر الذي لم يترك لى ولا لك مساعداً ولا معيناً .
فألم بما فى نفسها فابتسم لها ابتسامة الحزن والمضض وقال لها من لى يا سيدتى ان أكون عند ظنك بى وهذا المرض الذى يساورنى ويتمهدنى من حين الى حين قد نغص علىّ عيشى وأفسد علىّ حياتى وقد أنذرنى الطبيب باقتراب ساعة أجلى الا ان تدركنى رحمة الله . ففتشى عن سعادتك عند غيرى فأنت من بنات الوجود وأنا من أبناء الخلود . فقالت له انك ستعيش وسأعالجك ولو كان دواؤك بين سحرى ونحري ، قال لا تصدقى يا سيدتى فانا عالم بدوائى وعالم بأنى لا استطيع السبيل اليه ، قالت وما دواؤك ؟ فامتنع عليها برهة لا يجيبها فلما أعياه الحاحها قال حدثنى طبيبى ان شفائى في أكل دماغ ميت ليومه . فلما علمت أن ذلك يعجزنى اسجلت ان لا دواء لى ولا شفاء . فارتعدت وشحب لونها وأطرقت طويلا ثم رفعت رأسها هادئة ساكنة وقالت انى لا أزال أقول لك انى سأعالجك وان كان دواءك فى ذهاب نفسى . ثم أمرته ان يأخذ قسطه من الراحة وخرجت متسللة حتى وصلت الى غرفة سلاح زوجها فأخذت منها فأساً ثم مشت تختلس خطوها اختلاسا حتى وصلت الى غرفة الميت ففتحت الباب فدار على عقبه وصر

صريرا مزعجا فجمدت فى مكانها وقد امتلأ قلبها رعبا وخوفا وذهبت بها الظنون كل مذهب ، ثم عادت الى سكونها فتقدمت لشأنها حتى دنت من السرير ورفعت الفأس وما كادت تهوى بها حتى رأت الميت فاتحا عينيه ينظر اليها فسقطت الفأس من يدها والتفتت وراءها فرأت الضيف والخادم واقفين وراءها يتضاحكان ففهمت كل شىء

وهنالك تقدم اليها زوجها وقال لها : أليست المروحة ياسيدتى فى يد تلك المرأة الغادرة أجمل من الفأس فى يدك ؟ أليست التى تجفف تراب قبر زوجها بعد دفنه أفضل من التى تكسر دماغه قبل نعيه . فصارت تنظر اليه نظرا غريبا ثم شهقت شهقة كانت فيها نفسها

الغد

عرفت أنى فكرت ليلة الأمس فيما أكتب اليوم ، وعرفت أني ممسك الساعة قلمي بين أصابعي ، وأن بين يدى صحيفة بيضاء تسود قليلا قليلا ، كلما أجريت القلم فيها ، ولكنى لا أعلم هل يبلغ القلم مداه ، أو يكبو [1] دون غايته . وهل أستطيع ان أتم رسالتى هذه أو يعترض عارض من عوارض الدهر في سبيلها ،

(١) كبا يكبو سقط على وجهه

لأنى لا أعرف من شؤون الغد شيئاً ، ولأن المستقبل بيد الله

عرفت أنى لبست أثوابى فى الصباح وأنى لا أزال البسها حتى الآن ، ولكنى لا أعلم هل أخلعها بيدى ، أو تخلعها يد الغاسل

الغد شبح مبهم يتراءى للناظر من بعيد فربما كان ملكا رحيما وربما كان شيطانا رجيما ، بل ربما كان سحابة سوداء ، اذا هبت عليها ريح باردة ، حللت اجزاءها ، وفرقت ذراتها ، فاصبحت كأنما هي عدم من الاعدام التى لم يسبقها وجود

الغد بحر خضم زاخر يعب عبابه [١] ، وتصطخب أمواجه [٢] فما يدريك إن كان يحمل فى جوفه الدر والجوهر ، أو الموت الاحمر

لقد غمض الغد عن العقول ودق شخصه عن الانظار ، حتى لو ان انسانا رفع قدمه ليضعها لا يدرى أيضعها على عتبة القصر ، أو على حافة القبر

الغد صدر مملوء بالأسرار الغزار تحوم حوله البصائر وتتسقطه [٣] العقول وتستدرجه الانظار ، فلا يبوح بسر من أسراره الا اذا جادت الصخرة بالماء الزلال

---

(١) يعب عبابه يرتفع موجه

(٢) اصطخبت الامواج ارتفعت أصواتها

(٣) تسقط الخبر أخذه شيئا فشيئا

كأنى بالغد وهو كامن فى مكمنه ، رابض فى مجثمه [١] متلفع ابتسامات الاستخفاف والازدراء

يقول فى نفسه لو علم هذا الجامع أنه يجمع للوارث ، وهذا البانى أنه يبنى للخراب ، وهذا الوالد أنه يلد للموت ، ماجمع الجامع ولا بنى البانى ولا ولد الوالد ذلل الانسان كل عقبة فى هذا العالم ، فاتخذ نفقا [٢] فى الارض ، وصعد بسلم الى السماء ، وعقد ما بين المشرق والمغرب بأسباب من حديد وخيوط من نحاس [٣]

انتقل بعقله الى العالم العلوى فعاش فى كواكبه ، وعرف أغوارها وانجادها وسهولها وبطاحها وعامرها وغامرها ورطبها ويابسها

وضع المقاييس لمعرفة أبعاد النجوم ومسافات الاشعة ، والموازين لوزن كرة الارض مجموعة ومتفرقة

غاص فى البحار فعرف أعماقها وفحص تربتها وأزعج سكانها ونبش دفائنها وسلبها كنوزها وغلبها على لآلئها وجواهرها

---

(١) مجثم الطائر موضع جثومه أى تلبده بالارض

(٢) النفق السرب فى الارض ينتهى بمخرج . يشير الى نفق القطارات الحديديه في بطن الارض فى بعض البلاد

(٣) الاسباب الحبال وكل ما يوصل بين الشيئين . يشير الى اتصال العلائق بين أقطار الارض بسبب قضبان الحديد وأسلاك الكهرباء

نفذ من بين الاحجار والآكام (١) الى القرون الخالية فرأى أصحابها وعرف كيف يعيشون وأين يسكنون ، وماذا يأكلون ويشربون

تسرب من نافذ الحواس الظاهرة الي الحواس الباطنة فعرف النفوس وطبائعها . والعقول ومذاهبها ، والمدارك ومراكزها حتي كاد يسمع حديث النفس ودبيب المنى ، إخترق بذكائه كل حجاب وفتح كل باب ، ولكنه سقط أمام باب الغد عاجزا مقهورا لايجرأ على فتحه ، بل لا يجسر على قرعه ، لأنه باب الله . والله لايطلع على غيبه أحدا

أيها الشبح الملثم بلثام الغيب ، هل لك ان ترفع عن وجهك هذا اللثام قليلا لنرى لمحة واحدة من لمحات وجهك ، أو لا ، فاقترب منا علنا نستطيع أن نستشف خيالك من وراء هذا اللثام السدول فقد طارت قلوبنا شوقا اليك ، وذابت أكبادنا رهبا عليك

أيها الغد ، ان لنا آمالا كبارا وصغارا ، وأماني حسانا وغير حسان ، فحدثنا عن آمالنا أين مكانها منك ، وخبرنا عن أمانينا ماذا صنعت بها ، أأذللتها وأهنتها ، أم كنت لها من المكرمين . لالا ، صن سرك فى صدرك ، وابق لثامك على وجهك ولا تحدثنا حديثا واحدا عن آمالنا وأمانينا حتى لاتفجعنا فيها ، فتفجعنا فى أرواحنا

---

(١) يشير الى ما وقف عليه العلماء من الحقائق التاريخية بعد الاطلاع على الآثار التاريخية

ونفوسنا فانما نحن أحياء بالآمال وان كانت باطلة . وسعداء بالاماني وان كانت كاذبة

وليست حياة المرء الا أمانيا اذا هي ضاعت فالحياة على الاثر

كلماته

الادب الكاذب

كنا وكان الأدب حالا قائمة بالنفس تمنع صاحبها ان يقدم على شر أو يحدث نفسه به او يكون عونا لفاعليه عليه فان ساقته اليه شهوة من شهوات النفس او نزوة من نزواتها وجد نفسه عند غشيانه من المضض والارتماض ما ينغص عليه عيشه ويقلق مضجعه ويطيل سهده وألمه فاصبحنا واذا الادب صورة من صور الجوارح وعرض من الاعراض المتعلقة بحركات الانسان وسكناته لا دخل لها في جوهر نفسه ولا علاقة بينه وبين حسه ووجدانه فأكثر الناس عند الناس ادبا واقومهم خلقا واطهرهم نفسا من لا يفي على شرط ان يعد ومن يكذب على ان يكون كذبه سائغا مهذبا ومن يملأ صدره موجدة وحقدا على ان يكون مبتسما ضحوك السن ومن يسرق على ان يعبث بمواد القانون او يخدع القضاة عنها ومن يبغض الناس جميعا بلسانه ومن يحفظ تلك المصطلحات اللفظية وتلك الصور الجامدة من الحركات الجسمية التي تواضع عليها

الظرفاء فى الزيارة والاستزارة والهناء والعزاء والمؤاكلة والمنادمة وامثال ذلك مما يرجع العلم به غالبا الى صغر النفس واسفافها اكثر مما يرجع الى علوها وكمالها

ذلك هو الادب الكاذب الذى أصبح فى هذا المصر رأيا عاما يشترك فيه خاصة الناس وعامتهم وعقلاؤهم وجهلاؤهم ويعلمه الوالد لولده والاستاذ لتلميذه ويقتتل عليه الناس قتالا كما يقتتلون على اعز الاشياء وانفسها حتى تبدلت الصور وانعكست الحقائق واصبح الرجل الصادق الذى لا يعد الا اذا علم من نفسه القدرة على الوفاء ولا يقول بلسانه الا ما يعتقد بقلبه ولا يبش الا فى وجه الرجل الشريف ولا يقطب الا فى وجه الرجل الساقط حتى لا يكون ظالما للأول ولا غاشا للثانى أحرج الناس بصدقه صدرا واضلهم به سبيلا لا يعلم ايكذب فيسخط ربه ويرضى الكاذبين أم يصدق نفسه ويرضى الناس اجمعين ولا يعلم أيهجر هذا العالم الى عزلة موحشة يقضى فيها بقية حياته غريبا منفردا أم يبرز للعيون فيموت هما وكمدا

ان كان لهذه الامة أدب فى سعادة الحياة وهنائها فلتعلم أن لا سبيل لها الى ذلك الا اذا أدبت نفسها بأدب غير هذا الادب الكاذب

الانتقاد

بين نقد المؤلفات هنا و نقدها فى اوربا فرقان احدهما يتعلق بالناقد والآخر يتعلق بأثر النقد فى الأذهان. اما الأول فهو ان الناقد هناك ينتقد الكتاب من حيث ذاته وهنا ينتقده باعتبار شخص مؤلفه أى انه لا ينتقد الكتاب بل صاحب الكتاب فى كتابه. واما الثانى وهو أثر طبيعى بالأول فهو ان للانتقاد هناك أثرا ظاهرا فى الكتاب من حيث رواجه وكساده وشهرته وخموله فكما يقول المنتقد يقول الناس بقوله وهنا يمر الانتقاد بالاذهان فلا يبقى من آثاره فيها الا أثر واحد وهو ان الكتاب جليل القدر سنى القيمة ولولا ذلك ما احتفل بأمره محتفل

لذلك رأيت كثيرا من علماء الناس لا يرضون عن انفسهم الا اذا انتقد الناقدون مؤلفاتهم بل رأيت من يتوسل الى احد الناقدين ان ينتقد مؤلفه بل رأيت من يبلغ به الامر ان ينتقد كتابه بنفسه بتوقيع منحول

أولئك هم الذين يعرفون قيمة المنتقدين عندنا وأثر انتقاداتهم فى أنفسنا. اما الذين يغضبهم الانتقاد ويحرج صدورهم فهم الذين لا يعرفون من هذا ولا ذاك شيئا

الكتابة والشعر

انصح للشعراء الذين ليسوا فى الطبقة الاولى من الشعر ولا هم فى طريقها ان يعدلوا عنه الى الكتابة لان الكاتب يطرب ان كان أولا ويحسن ان كان ثانيا

أما الشاعر فهو المغنى المطرب الذى يحمل من لسانه ريشة رقيقة يضرب بها على اوتار القلوب فيضحكها ويميتها او يحييها فهو ان لم يكن فى الطبقة الاولى فتوسطه وتدليه سواء . فان اراد الشعراء ان يعرفوا منزلتهم التى ينزلونها من درجات الشعر فسبيلهم الى ذلك الذي لا سبيل غيره ان ينشروا على صفحات الجرائد نفثات اقلامهم متنكرين ثم يمشوا وراءها متسمعين ليعرفوا ماذا يقول الأدباء عنها . فان بدا لهم ان يعتمدوا على انفسهم او على ثناء السامعين عليهم وابتسامات المبتسمين اليهم فليعلموا ان المرء مفتون بشعره وان الشعر هو الفن الوحيد الذى تتسع فيه المسافة دائماً بين عقيدة المرء فى نفسه والواقع من امره وانه لا يوجد فى هذا البلد واحد يستطيع ان يقول للمسىء فى وجهه انك قد اسأت او انك قليل الاحسان

علاج التعصب الدينى

مرت بى ساعة من ساعات حياتى لا أزال اذكرها ولا ازال استحى من ذكرها حتي اليوم ابغضت فيها اليسوعى ليسوعيته والموسوى لموسويته والوثنى لوثنيته ثم الهمنى الله ان اعود الى نفسى وكنت عودتها ان اعود اليها كلما وقفت فى موقف شبهة او أشرفت على مراق دينية وذلك انى ما كنت مسلما لأنى استعرضت الاديان جميعها بين يدى وقلبت فيها وجوه الرأى حتى أخذت لنفسى المأخذ الذي اتمذهب به ولا لانى قرأت الادلة والبراهين التى يوردها علماء الكلام على صحة قواعد الاسلام وأصوله ثم اتخذتها مقدمة لتلك النتيجة التى أنا عليها اليوم بل لان أبى كان مسلما فأورثنى دينه ولان أهلى كانوا مسلمين فغذونى بتلك القواعد والأصول كلمة كلمة كما غذونى باللبن جرعة جرعة حتى نشأت مسلما بعد التربية والتمهيد لا بعد النظر والاستدلال

أما تلك المعلومات التى حصلت عليها بعد ذلك من النظر فى العلوم الكلامية واستطعت أن أقيم بها البرهان على صحة دين الاسلام وأنه خير الاديان وأقومها طريقا وأهداها سبيلا فتلك نتيجة من نتائج التدين لا مقدمة من مقدماته فلو ان الله تعالى

كان كتب لابي في لوح مقاديره أن يكون سبيله غير هذا السبيل وطريقه غير تلك الطريق فما كان لي بد من ان اترسم خطواته واسير على آثاره وأنظر الى ديني بالعين التي أنظر بها اليوم الى أديان الناس ولم أزل اردد ذلك الرأي في نفسي وأتمهده بالنظر في غدواتي وروحاتي ومصبحي وممساي حتى اطمأنت نفسي الى القول بأن الدين تربية وخلق لا مذهب واعتقاد وان أدلة الاديان وبراهينها إنما هي آثار تأتي بعدها لا مؤثرات تتقدم عليها. ولولا ذلك لرأينا كثيراً من أبناء المسلمين مثلا مسيحيين وأبناء اليهود بوذيين وذلك مالا نراه إلا قليلا عند ما يرد على الغرائز الدينية مؤثر من المؤثرات الخارجية كتلك التي ترد على أصحاب النفوس الضعيفة فتنتزع أخلاقهم من مواضعها وتتمشى بها في غير سبيلها فقلت أي مانع يمنعني من القول بأن لليسوعي الذي يتمسك بيسوعيته ويشدد فيها شأنا في ذلك التمسك مثل شأني وسبيلا في هذا التشدد مثل سبيلي وانه لم يكن مسيحياً لانه غبي أو جاهل او ساقط او سافل او انه أراد بانتحاله هذا الدين مغايظتي أو معاندتي أو الزراية بالدين الذي أدين به ولكنه ولد في بيئة غير التي ولدت . ونشأ في أمة غير التي نشأت فكان كما كان وكنت كما كنت . تجمعنا جامعة الانسانية والتعقل والادراك والفهم ولا يفرقنا ذلك الاختلاف في المذهب إلا كما يفرق

أحدنا عن صاحبه اختلاف ما بيننا في المطعم والمشرب والملبس والمقام

هنالك أصبحت انسانا غير ذلك الانسان الاول أحب الرجل الفاضل ولا أعتقد أن الفضيلة وقف على المسلمين وأبغض الرجل الدنئ ولا أعتقد أن للدناءة صلة بمسيحية المسيحيين او موسوية الموسويين : وقلت لو أن الناس جميعاً علموا من أمر الاديان ومنشئها مثل ما علمت لكانت العقائد الدينية وهي الخير المحض شرا على العباد من الجحود والالحاد

فارقتني ولم تودعني فاغتفرت لك ذلك ، اما اليوم وقد اصبحت على باب القبر فلا اغتفر لك أن لا تأتي اليّ لتودعني الوداع الأخير »

فرميت بالكتاب من يدي وابتدرت الباب مسرعا فتعلقت الخادم بثوبي وقالت أين تريد ياسيدي ، قلت انها مريضة ولا بد لي من المصير اليها ، قالت لا تفعل ياسيدي فقد سبقك القضاء اليها

هنالك شعرت ان قلبي قد فارق موضعه الى حيث لا أعلم له مكانا ثم دارت بي الارض الفضاء دورة سقطت على أثرها في مكاني لا أشعر بشيء مما حولي فلم افق الا بعد حين ففتحت عيني فاذا الليل قد اظلني واذا الخادم لا تزال بجانبي تبكي وتنتحب فدنوت منها وقلت : ايتها المرأة احق ما تقولين ، قالت نعم ، قلت قصي على كل شيء فقالت

ان ابنة عمك لم تنتفع بنفسها ياسيدي بعد فراقك فقد سألتني في اليوم الذي رحلت فيه عن سبب رحيلك فحدثتها حديث الرسالة التي كنت حملتها اليك من زوجة عمك فلم تزد على قولها « وماذا يكون مصير هذا البائس المسكين ، إنهم لا يعلمون من امره ولا من امري شيئا » ثم لم يجر ذكرك عَلَى لسانها بعد ذلك بخير ولا شر كأنها كانت تعالج في نفسها ألما ممضا ، وماهي الا أيام قلائل حتى سرى داء نفسها الى جسمها فاستحالت حالها وغاض ماء جمالها وانطفأت تلك الابتسامات العذبة التي كانت لا تفارق

ثغرها ثم سقطت على فراشها مريضة لا تبِل[1] يوماً حتى تنتكس أياماً فراع أمها أمرها وورد عليها ما قطعها عن ذكر العرس والعروس والخطبة والخطيب وكانت لا تزال تهتف بذلك فلم تدع طبيباً ولا عائداً إلا فزعت اليه فى أمرها فما أغنى العائد ولا الطبيب وأصبحت الفتاة تدنو من القبر رويداً رويداً

فبينا أنا ساهرة بجانب فراشها منذ ليال إذ شعرت بها تتحرك فى مضجعها فدنوت منها فأشارت الىَّ أن آخذ بيدها ففعلت فاستوت جالسة وقالت فى أى ساعة نحن من ساعات الليل ؟ قلت فى الهزيع الأخير منه ، قالت أأنت وحدك هنا ؟ قلت نعم فقد هجع أهل البيت جميعاً قالت ألا تعلمين أين مكان ابن عمي الآن ؟ فعجبت لكلمة لم أسمعها منها قبل اليوم وقلت بلى ياسيدتى أعلم مكانه ، وما كنت أعلم شيئاً ولكننى أشفقت على هذا الخيط الرقيق الباقى فى يدها من الأمل أن ينقطع فينقطع بانقطاعه آخر خيط من خيوط أجلها ، فقالت ألا تستطيعين أن تحملى اليه كتاباً منى من حيث لا يعلم أحد بشأنى ؟ قلت لا أحبّ الىَّ من ذلك ياسيدتى ، فأشارت أن آتيها بمحبرتها فجئتها بها فكتبت اليك هذا الكتاب الذى تراه ، فلما أصبح الصباح خرجت أسائل الناس عنك فى كل مكان وأتصفح وجوه الغادين والرائحين فى كل سبيل علنى أراك فلم

(١) أبل من مرضه برئ منه

أنين الوالهة الثكلى ، أو هائماً في غرفته يذرع أرضها ، ويطوف بأركانها ، حتى إذا نال منه الجَهد سقط على كرسيه باكياً منتحباً ، فأتوجع له وأبكي لبكائه وأتمنى لو استطعت أن أداخله مداخلة الصديق لصديقه واستبثه (١) ذات نفسه وأشركه في همه لولا أنني كرهت أن أفجأه بما لا يحب وأن أهجم منه على سر ربما كان يؤثر الابقاء عليه في صدره وان يكاتمه الناسَ جميعاً ، حتى أشرفتُ عليه ليلة أمس بعد هدأة من الليل فرأيت غرفته مظلمة ساكنة فظننت انه خرج لبعض شأنه ، ثم لم ألبث أن سمعت في جوف الغرفة أنة ضعيفة مستطيلة فأزعجني مَسمعها وخيل الىّ وهي صادرة من قرارة نفسه كأنني أسمع رنينها في أعماق قلبي ، وقلت ان الفتى مريض ولا يوجد بجانبه من يقوم بشأنه وقد بلغ الأمر مبلغ الجد فلا بد لى من المصير إليه ؛ فتقدمت الى خادمي (٢) أن يتقدمني بمصباح ثم صعدت إليه حتى بلغت باب غرفته فأدركني من الوحشة عند دخولها ما يدرك الواقف على باب قبر يحاول أن يهبط إليه ليودع ساكنه الوداع الأخير ، ثم دخلت ففتح عينيه عند ما أحس بي وكأنما كان ذاهلاً أو مستغرقاً فأدهشهُ أن يرى بين يديه مصباحاً مضيئاً ورجلاً لا يعرفهُ ، فلبث شاخصاً الىّ هنيهة

(١) استبثه السر طلب إليه ان يبثه إياه
(٢) تقدم الى فلان بكذا أمره به

لا ينطق ولا يَطرِف (١) فاقتربتُ من فراشـه وجلست بجانبه وقلت أنا جارك فى هذا المنزل وقد سمعتك الساعة تعالج نفسك علاجاً شديداً وعلمتُ أنك وحدك فى هذه الغرفة فعنانى أمرك فجئتك عانى أستطيع أن أكون عوناً لك على شأنك ، فهل أنت مريض ! فرفع يده ببطء فوضعها على جبهته فوضعتُ يدى حيث أشار فشعرت برأسه يلتهب التهاباً فعلمت انهُ محموم ثم أمررت نظرى على جسمه فإذا خيال سارٍ لا يكاد يتبينه رائيه ، وإذا قميص فضفاض (٢) من الجلد يموج فيه بدنه موجاً ، فأمرت الخادم أن يأتينى بشراب كان عنـدى من أشربة الحمي فجرعته منه بعض قطرات فاستفاق قليلا ونظر إلى نظرة عذبة صافية وقال شكراً لك ، فقلت ما شَكاتك أيها الأخ ؟ قال لا أشـكو شيئاً ، قلت فهل مرَّ بك زمن طويل على حالك هذه ؟ قال لا أعلم ، قلت أنت فى حاجة الى الطبيب فهل تأذن لى أن أدعوه إليك لينظر فى أمرك ؟ فتنهد طويلا ونظر إلىّ نظرة دامعة وقال : انما يبكى على الطبيب من يؤثر الحياة على الموت : ثم أغمض عينيه وعاد إلى ذهوله واستغراقه ؛ فلم أجد بدًّا من دعاء الطبيب رضى ذلك أم أبى فدعوتهُ فجاء متأففاً متذمراً يشكو من حيث يعلم أنى أسمع

---

(١) طرف فلان بصره أطبق أحد جفنيه على الآخر

(٢) الفضفاض الواسع

شكواه إزعاجه من مرقده وتجشيمه خوض الأزقة المظلمة فى الليالى الباردة فلم أحفل بأمره لأنى أعلم طريق الاعتذار إليه ، ففحص المريض وهمس فى أذنى قائلا : ان عليلك ياسيدى مشرف على الخطر ولا أحسب أن حياته تطول كثيراً إلا إذا كان فى علم الله ما لا نعلم ، وجلس ناحية يكتب ذلك الأمر الذى يسطره الأطباء الى عمالهم الصيادلة ان يتقاضوا من عبيدهم المرضى ضريبة الحياة ، ثم انصرف لشأنه بعد ما أحسنت الاعتذار اليه فأحضرت الدواء وقضيت بجانب المريض ليلة ليلاء ذاهلة النجم بعيدة ما بين الطرفين أسقيه الدواء مرة وأبكى عليه أخرى حتى انبثق نور الفجر فاستفاق ودار بعينيه حول فراشه حتى رآنى فقال انت هنا؟ قلت نعم ، أرجو ان تكون أحسن حالا من قبل ، قال أرجو ان أكون كذلك ، قلت هل تأذن لى يا سيدى أن أسألك من أنت ، وما مقامك وحدك فى هذا المكان ، وهل أنت غريب عن هذا البلد أو أنت من أهليه ، وهل تشكو داء ظاهراً أو هماً باطناً قال أشكوهما معاً ، قلت فهل لك أن تحدثنى بشأنك وتفضى الى بهمك كما يفضى الصديق الى صديقه فقد أصبحت معنياً بأمرك عنايتك بنفسك ؟ قال هل تعدنى بكتمان أمرى ان قسم الله لى الحياة وبتنفيذ وصيتى ان كانت الأخرى ؟ قلت نعم ، قال قد وثقت بوعدك فان من يحمل فى صدره قلباً شريفاً مثل قلبك لا

يكون كذاباً ولا خائناً .

أنا فلان بن فلان مات أبي منذ عهد بعيد وتركني في السادسة من عمري فقيراً معدماً لا أملك من متاع الدنيا شيئاً فكفلني عمي فلان فكان خير الأعمام وأكرمهم وأوسعهم براً واحساناً ، واكثرهم عطفاً وحناناً ، فأنزلني من نفسه منزلةً لم ينزلها أحد من قبلي غير ابنته الصغيرة وكانت في عمري أو أصغر مني قليلاً ، وكأنما سرّه أن يرى لها بجانبها أخاً بعد ما عنى ذلك على الله زمناً طويلاً فلم يدرك أمنيته فعني بي عنايته بها وأرسلنا الى المدرسة في يوم واحد ، فأنست بها أنس الاخ بأخته وأحببتها حباً شديداً ووجدت في عشرتها من السعادة والغبطة ما ذهب بتلك الغضاضة التي كانت لا تزال تعاود نفسي بعد فقد أبويّ من حين الى حين فكان لا يرانا الرائي إلا ذاهبين الى المدرسة أو عائدين منها أو لاعبين في فناء المنزل أو هائمين في حديقته أو مجتمعين في غرفة المطالعة او متحدثين في غرفة النوم حتى جاء يوم حجابها فلزمت منزلها واستمررت في دراستي

ولقد عقد الود بين قلبي وقلبها عقداً لا يحله الا ريب المنون ، فكنت لا أجد لذة العيش إلا بجوارها ، ولا أرى نور السعادة الا في فجر ابتساماتها ، ولا اوثر على ساعة أقضيها بجانبها جميع لذات العيش ومسرّات الحياة ، وما كنت أشاء أن أري خصلة من خصال

الخير فى فتاة من أدب أو ذكاء أو حلم أو رحمة أو عفة أو شرف أو وفاء إلا وجدتها فيها

وإنى أستطيع وأنا فى هذه الظلمة الحالكة من الهموم والأحزان أن أرى على البعد تلك الأجنحة النورانية البيضاء من السعادة التى كانت تظللنا أيام طفولتنا معاً فتشرق لها نفسانا إشراق الراح فى كأسها ، وأن أرى تلك الحديقة الغناء التى كانت مراح لذاتنا ، ومسرح أمانينا ، وأحلامنا ، كأنها حاضرة بين يدى أرى لألاء مائها ، ولمعان حصبائها ، وأفانين اشجارها ، وألوان أزهارها ، وتلك المقاعد الحجرية التى كنا نتخذها منها فنجتمع فوقها على حديث نتجاذبه ، أو طاقة نؤلف بين أزهارها ، أو كتاب نقرأه معاً ، أو رسم نشترك فى النظر فيه ، وتلك الخمائل الخضراء التى كنا نفىء الى ظلالها كلما فرغنا من شوط من أشواط المسابقة فنشعر بما تشعر به أفراخ الطير اللاجئة الى أحضان أمهاتها وتلك الحفائر الجوفاء التى كنا نحتفرها بأيدينا على شواطىء الجداول والغدران فنملؤها ماء ثم نجلس حولها لنصطاد أسماكها التى وضعناها فيها بأيدينا فنطرب إن ظفرنا بشىء منها كأننا ظفرنا بغنم جديد وتلك الأقفاص الذهبية البديعة التى كنا نربى فيها عصافيرنا ثم نقضى الساعات الطوال بجانبها نعجب بمنظرها ومنظر مناقيرها الخضراء وهى تحسو الماء مرة وتلتقط الحب أخرى ، ونناديها

بأسمائها التي سميناها بها فاذا سمعنا صفيرها ظننا انها تلبي نداءنا

ولا أعلم هل كان ما كنت أضمره لابنة عمي في نفسي وداً واخاء او حباً وغراماً، ولكنني أعلم انه ان كان حباً فقد كان حباً بلا أمل ولا رجاء، فما قلت لها يوماً اني أحبك لأني كنت أضن بها وهي ابنة عمي ورفيقة صباي أن أكون أول فاتح لهذا الجرح الأليم في قلبها، ولا قدّرتُ في نفسي يوماً من الأيام أن أصل أسباب حياتي بأسباب حياتها لأني كنت أعلم ان أبويها لا يسخوَان على فتى بائس فقير مثلي، ولا حاولتُ في ساعة من الساعات ان أتسقط (١) منها ما يطمع في مثله المحبون المتسقطون لأني كنت أجلها عن ان أنزل بها الى مثل ذلك، ولا فكرت يوماً ان أستشف من وراء نظراتها خبيئة نفسها لأعلم أي المنزلتين أنزلها من قلبها، منزلة الأخ او منزلة الحبيب، فأستعين بإرادتها إن كانت الأخرى على إرادة أبويها، بل كان حبي لها حب الراهب المتبتل لصورة العذرة الماثلة بين يديه في صومعته يعبدها ولا يدنو منها

ولم يزل هذا شأني وشأنها حتى نزلت بعمّي نازلة من المرض القاتل لم تنشب (٢) ان ذهبت به إلى جوار ربه، وكان آخر ما

---

(١) تسقط فلان الخبر أخذه شيئاً بعد شيء

(٢) لم تنشب لم تلبث

نطق به فى آخر ساعات حياته أن قال لزوجته وكان يحسن بها ظ
لقد أعجلنى الموت عن النظر فى شأن هذا الغلام فكونى له أماً
كما كنتُ له أبا وأوصيك ان لا يفقدَ مني بعد موتى إلاّ شخصى
فما هو إلا أن مرّت ايام الحداد حتى رأيت وجوها غير الوجو
ونظرات غير النظرات وحالا غريبة لا عهد لى بمثلها من قبل
فتداخلني الهم واليـأس ووقع فى نفسى للمرّة الأُولى فى حيا
أننى قد اصبحت فى هذا المنزل غريباً ، وفى هذا العالم يتيما ،

فانى لجالس فى غرفتى صبيحة يوم إذ دخلَتْ علىّ الخادم وكانت
امرأة من النساء الصالحات المخلصات فتقدمتْ الى باكية منكسر
وقالت : قد امرتنى سـيدتى زوجة عمك ان اقول لك ياسيدى
إنها قد عزمت على تزويج ابنتها فى عهد قريب ، وإنها ترى ان فى
بقائك بجانبها بعد موت ابيها مايريبها عند خطيبها ، وانهـا تريد
ان تتخذ للزوجين مسكنا هذا الجناح الذى تسكنه من القصر ،
فهى ترى لك ان تتحوّل الى منزل آخر تختاره لنفسك من بين
منازلها تقوم لك هى بشأنه وشأن نفقاتك فيه

فـكأنما عمدت الى سهم مريش فأصابت به كبدى الا اننى
تماسكت قليلا ريثما قلت لهـا سأفعل ذلك ان شاء الله فانصرفتْ
لشأنها فخلوت بنفسى ساعة من الزمان اطلقت فيها السبيل لعبرتى
ماشاء الله ان اطلقها حتى جاء الليل فعمدت إلى حقيبتى فأودعتهـا

ثيابي وكتبي وقلت

« قد كان كل ما اسعد به في هذه الحياة ان اعيش بجانب ذلك الانسان الذي احببته واحببت نفسي من اجله وقد حيل بيني وبينه فلا آسف على شيء بعده »

ثم انسللت من المنزل انسلالا من حيث لا يشعر احد بمكاني ولم اتزود منها قبل الرحيل غير نظرة واحدة القيتها عليها من وراء كلتها (١) وهي نائمة في سريرها فكانت آخر عهدي بها

لعمرك مافارقت بغداد عن قلى ... لو أنا وجدنا من فراق لها بدا
كفى حزنا ان رحت لم استطع لها ... وداعا ولم احدث بساكنها عهداً

***

وهكذا فارقتُ المنزل الذي سعدتُ فيه برهة من الزمان فراق آدم جنته وخرجت منه شريداً طريداً حائراً ملتاعا قد اصطلحت عليّ مختلفات الهموم والاحزان . فراق لا لقاء بعده وفقر لا سادّ لخلته . وغربة لا أجد عليها من أحد من الناس مواسيا ولا معينا

وكانت معي صُبابة (٢) من مال قد بقيت في يدي من آثار تلك النعمة الذاهبة فاتخذت هذه الحجرة في هذا السطح مسكنا

---

(١) الكلة الستر الرقيق
(٢) الصبابة البقية من الشيء

فلم أستطع البقاء فيها ساعة واحدة فازمعت الرحيل الى حيث أجد في فضاء الله ومنفسح آفاقه علاج نفسي من همومها وأحزانها ، فرحلت رحلة طويلة قضيت فيها بضعة أشهر لاأهبط بلدة حتى تنازعني نفسي الى أخرى ولا تطلع علي الشمس في مكان حتى تغرب عني في غيره حتى شعرت في آخر الامر بسكون في نفسي يشبه سكون الدمع المعلق في محاجر العين لايفيض ولا يغيض ، فقنعت بذلك وكان ميعاد الدراسة السنوية قد حان فعدت وقد استقر في نفسي أن اعيش في هذا العالم منفردا كمجتمع وغائبا كحاضر وبعيدا كقريب وان ألهو بشأن نفسي عن كل شأن سواه وان استعين على نسيان الماضي باجتناب آثاره ومظاهره فلازمت غرفتي ومدرستي لااترك احداهما الا الى الاخرى ولم يبق من اثر لذلك العهد القديم في نفسي الانزوات تعاود قلبي من حين الى حين فاستعين عليها بقطرات من الدمع اسكبها من جفني في خلوتي من حيث لايعلم الا الله مابي فأجد برد الراحة في صدري

لبثتُ على ذلك برهة طويلة حتي عدت بالامس الى تلك الفضلة التي كانت في يدي من المال فاذا هي ناضبة او موشكة وكنت مأخوذا بان اهيئ لنفسي عيشا مستقبلا وان أؤدي للمدرسة قسطا من اقساطها والمدرسة في هذا البلد حانوت لاتباع فيه السلع نسيئة والعلم في هذه الأمة مرتزق منه العلماء لا منحة

يمنحها المحسنون فاهمتني وعلمت انى مشرف على الخطر ولا اعرف سبيلا الى القوت بوجه ولا حيلة فعمدت الى كتبي فاستبقيت منها مالا غنى لى عنه وحملت سائرها [1] فذهبت به الى سوق الوراقين فعرضته هناك يوما كاملا فلم اجد من يبلغ بى فى المساومة نصف ثمنه فعدت به حزينا منكسرا وما على وجه الارض أحد أذل مني ولا أشقى .

فلما بلغت باب المنزل رأيت فى فنائه امرأة تسائل اهل البيت عني فتبينتها فاذا هي الخادم التي كانت تخدمني فى منزل عمى فقلت فلانة ؟ قالت نعم ، قلت ماذا تريدين ، قالت لى اليك كلمة فائذن لى بها ، فصعدت بها إلى غرفتى فلما خلونا قلت هات ، قالت مرت بى ثلاثة ايام افتش عنك فى كل مكان فلا اجد من يدلنى عليك حتى وجدتك اليوم بعد اليأس منك ، ثم انفجرت باكية بصوت عال فراعنى بكاؤها وخفت ان يكون قد حل بالبيت الذى احبه بأس فقلت ما بكاؤك ، قالت اماتعلم شيئا من اخبار بيت عمك ، قلت لا فما اخباره ، فمدت يدها الى ردائها واخرجت من اضعافه [2] كتابا مقفلا فتناولته منها ففضضت غلافه فاذا هو بخط ابنة عمى فقرأت فيه هذه الكلمة التي لا ازال احفظها حتى الساعة « انك

---

(١) سائر الشيء باقية

(٢) اضعاف الثوب اثناؤه

فارقتني ولم تودعني فاغتفرت لك ذلك ، اما اليوم وقد اصبحت على باب القبر فلا اغتفر لك أن لا تأتي اليّ لتودعني الوداع الأخير »

فرميت بالكتاب من يدي وابتدرت الباب مسرعا فتعلقت الخادم بثوبي وقالت أين تريد ياسيدي ، قلت انها مريضة ولا بد لي من المصير اليها ، قالت لا تفعل ياسيدي فقد سبقك القضاء اليها

هنالك شعرت ان قلبي قد فارق موضعه الى حيث لا أعلم له مكانا ثم دارت بي الارض الفضاء دورة سقطت على أثرها في مكاني لا أشعر بشيء مما حولي فلم افق الا بعد حين ففتحت عيني فاذا الليل قد اظلني واذا الخادم لاتزال بجانبي تبكي وتنتحب فدنوت منها وقلت : ايتها المرأة احق ما تقولين ، قالت نعم ، قلت قصي علي كل شيء فقالت

ان ابنة عمك لم تنتفع بنفسها ياسيدي بعد فراقك فقد سألتني في اليوم الذى رحلت فيه عن سبب رحيلك فحدثتها حديث الرسالة التي كنت حملتها اليك من زوجة عمك فلم تزد على قولها « وماذا يكون مصير هذا البائس المسكين ، إنهم لايعلمون من امره ولا من امري شيئا » ثم لم يجر ذكرك عَلَى لسانها بعد ذلك بخير ولا شر كأنها كانت تعالج في نفسها ألما ممضا ، وماهي الا أيام قلائل حتى سرى داء نفسها الى جسمها فاستحالت حالها وغاض ماء جمالها وانطفأت تلك الابتسامات العذبة التي كانت لاتفارق

ثغرها ثم سقطت على فراشها مريضة لا تبل (١) يوماً حتى تنتكس أياماً فراع أمها أمرها وردعليها ماقطعها عن ذكر العرس والعروس والخطبة والخطيب وكانت لاتزال تهتف بذلك فلم تدع طبيباً ولا عائداً إلا فزعت اليه فى أمرها فما أغنى العائد ولا الطبيب وأصبحت الفتاة تدنو من القبر رويداً رويداً

فبينا أنا ساهرة بجانب فراشها منذ ليال إذ شعرت بها تتحرك فى مضجعها فدنوت منها فأشارت الىّ أن آخذ بيدها ففعلت فاستوت جالسة وقالت فى أى ساعة نحن من ساعات الليل ؟ قلت فى الهزيع الأخير منه ، قالت أأنت وحدك هنا ؟ قلت نعم فقد هجع أهل البيت جميعاً قالت ألا تعلمين أين مكان ابن عمي الآن ؟ فعجبت لكلمة لم أسمعها منها قبل اليوم وقلت بلى ياسيدتى أعلم مكانه ، وما كنت أعلم شيئاً ولكننى أشفقت على هذا الخيط الرقيق الباقى فى يدها من الأمل أن ينقطع فينقطع بانقطاعه آخر خيط من خيوط أجلها ، فقالت ألا تستطيعين أن تحملى اليه كتاباً منى من حيث لا يعلم أحد بشأنى ؟ قلت لا أحب الىّ من ذلك ياسيدتى ، فأشارت أن آتيها بمحبرها فجئتها بها فكتبت اليك هذا الكتاب الذى تراه ، فلما أصبح الصباح خرجت أسائل الناس عنك فى كل مكان وأتصفح وجوه الغادين والرائحين فى كل سبيل علنى أراك فلم

(١) أبل من مرضه برىء منه

أعرف الطريق اليك ، حتى انحدرت الشمس الى مغربها فعدت الي المنزل وقد مضى شطر من الليل فما بلغته حتى سمعت الناعية فعلمت ان السهم قد أصاب المقتل وان تلك الوردة الناضرة التى كانت تملأ الدنيا جمالاً وبهاء قدسقطت اليوم آخر ورقة من وريقاتها فحزنت عليها حزن الثاكل على ولدها ومارئى مثل يومها يوم كان اكثر باكية وباكيا

وكان أكبر ماأهمنى من أمرها انّ كل ما كانت ترجوه فى آخر يوم من أيام حياتها ان تراك ففاتها ذلك وسقطت دون أمنيتها فلم أزل كاتمة أمر الرسالة فى نفسى ولم ازل أتطلب السبيل اليك حتى وجدتك

فشكرت لها صنيعها واذنتها بالانصراف فانصرفت فما انفردت بنفسى حتى شعرت ان سحابة سوداء تهبط فوق عينيّ شيئا فشيئا حتى احتجب عن ناظرى كل شىء ثم لا أعلم ماذا تم لى بعد ذلك حتى رأيتك

* * *

وما وصل من حديثه الى هذا الحد حتى زفر زفرة خلتُ أن كبده قد ارفضّت (١) وأن هذه أفلاذها ، فدنوت منه وقلت ما بك ياسيدى؟ قال بى أنى أطلب دمعة واحدة اتفرّج بها مما أنا فيه فلا أجدها

---

(١) ارفض الشىء تفرق وترشش

ثم سكت برهة طويلة فشعرت انه يهمهم ببعض كلمات فأصغيت اليه فأذاهو يقول

«اللهم انك تعلم انى غريب فى هذه الدار لا سند لى فيها ولا عضد ، وانى فقير لا أملك من متاع الدنيا ما أعود به على نفسى ، وانى عاجز مستضعف لا أعرف السبيل الى باب من ابواب الرزق فى هذه الحياة بوجه ولا حيلة ، وان الضربة التي أصابت قلبي قد سحقته سحقاً فلم يبق فيه حتى الذّماء[2]

وانى استحييك ان أمد يدى الى هذه النفس التى أودعتها بيدك بين جنبىّ فأنتزعتها من مكانها وآتى بها فى وجهك ساخطاً ناقما ، فامدد انت يدك اليها واستردّ وديعتك اليك وانقلها الى دار كرامتك فنعم الدار دارك ، ونعم الجوار جوارك »

ثم أمسك رأسه بيديه كأنما يحاول ان يحبسه عن الفرار وقال بصوت ضعيف خافت : أشعر برأسى يحترق احتراقاً وبقلبى يذوب ذوباناً ولا أحسبنى باقياً على هذا ، فهل تعدنى أن تدفننى معها فى قبرها وتدفن معى كتابها ان قضى الله فىّ قضاءه ؟ قلت نعم وأسأل الله لك السلامة ، قال الآن أموت طيب النفس عن كل شىء

---

(١) ارفض الشيء تفرق وترشش

(٢) الذماء بقية النفس

ثم انتفض انتفاضة خرجت نفسهُ فيها وهو يقول (أحسنت الىّ حياً فأحسن الىّ ميتاً)

***

لقد هوّن وجدى على هذا البائس المسكين انى استطعت تنفيذ وصيته فدفنتـه حيث أراد ودفنت معه تلك الرسالة التى دعته ابنة عمه فيها ان يوافيها فعجز عن ان يلبى نداءها حياً ، فلباها ميتاً .

وهكذا اجتمع تحت سقف واحد ذانك الصديقان الوفيان اللذان ضاق بهما فى حياتهما فضاء القصر ، فوسعهما بعد موتهما فضاء القبر

العقاب

« موضوعة [١] »

رأيتُ فيما يرى النائم فى ليلة من ليالى الصيف الماضى كأنى هبطت مدينة كبرى لاعلم لى باسمها ولا بموقعها من البلاد ولا بالعصر الذي هى فيه فمشيتُ فى طرقها بضع ساعات فرأيت أجناساً من البشر لاعداد لهم ينطقون بأنواع من اللغات لاحصر لها فخيل الىّ ان الدنيا قد استحالت الى مدينة وان الذى أراه بين يدىّ العالم بأجمعه من أدناه الى أقصاه فلم أزل أتنقل من مكان الى مكان وأداول بين الحركة والسكون حتى انتهى بي المسير الى بنية عظيمة لم أر بين البنى أعظم منها شأناً ولا أهول منظراً وقد ازدحم على بابها خلق كثير من الناس ومشى فى أفنيتها وأبهائها طوائف من الجند يخطرون بسيوفهم وحمائلهم جيئة وذهوباً فسألت بعض الواقفين ما هذه البنية وما هذا الجمع المحتشد على بابها فعلمت انها قصر الامير وان اليوم يوم القضاء بين الناس والفصل فى خصوماتهم ، وما هي الا ساعة حتى نادي مناد فى الناس ان قد

(١) وضعت هذه القصة على نسق قصة أمريكية اسمها صراخ القبور

اجتمع مجلس القضاء فاشهدوه ، فدخل النـاس ودخلت على أثرهم وجلست حيث انتهي بى المجلس فرأيت الامير جالساً على كرسى من ذهب يتلألأ فى وسط الفناء تلألؤ الشمس فى دارتها وقـد جلس على يمينه رجل يلبس مسوحاً (١) وعلى يساره آخر يلبس طيلساناً فسألت عنهما فعرفت ان الذى على يمينه كاهن الدير والذى على يساره قاضى المدينـة ورأيته ينظر فى ورقة بيضاء بين يديه فأكب عليها سـاعة ثم رفع رأسه وقال : ليؤت بالمجرمين ، ففتح باب السجن وكان على يسار الفناء فتكشف عن مثل حلق الليث منظراً وزئيراً وخرج منه الأعوان يقتادون شيخا هرماً تكاد تسلمه قوائمه ضعفاً ووهناً فسأل الامير ماجريمته فقال الكاهن انه لص دخل الدير فسرق منه غرارة (٢) من غرائر الدقيق المخصصة للفقراء والمساكين ، فضج الناس ضجيجاً عالياً وصاحوا ويل للمجرم الأثيم أيسرق مال الله فى بيت الله ؟ ثم نودى بالشهود فشهد عليه رهبان الدير فتسار الامير مع الكاهن برهة ثم قال يقاد المجرم الى ساحة الموت فتقطع يمناه ثم يسراه ثم بقية أطرافه ثم يقطع رأسه ويترك طعاماً للطير الغادى والوحش الساغب ؛ فجثا الشيخ بين يدى الامير ومد اليه يده الضعيفة المرتعشة كأنما يحاول ان يسترحمه

---

(١) المسوح جمع مسح بالكسر وهو ثوب من شعر يلبسه الرهبان
(٢) الغرارة الجوالق

فضرب الأعوان على فمه واحتملوه الى محبسه ، ثم عادوا وبين أيديهم فتى فى الثامنة عشرة من عمره أصفر نحيل يضطرب بين أيديهم خوفا وفرقا حتى وقفوا به بين يدى الامير فسأل ماجريمته فقالوا انه قاتل ذهب أحد قواد الامير الى قريته لجمع الضرائب فطالبه باداء ما عليه من المال فأبى وتوقح فى إبائه فانتهره القائد فاحتدم غيظا وجرد سيفه من غمده وضربه به ضربة ذهبت بحياته فصاح الناس باللفظاعة والهول ، إن من يقتل نائب الامير فكأنما قتل الامير نفسه ، ثم جيء بأعوان القائد المقتول فأدوا شهادتهم فأطرق الامير برهة ، ثم رفع رأسه وقال يقاد المجرم الي ساحة الموت فيصلب على جذع شجرة ثم تفصد عروقه كلها حتى لا يبقى فى جسمه قطرة واحدة من الدم ، فصرخ الغلام صرخة حال الاعوان بينه وبين إتمامها واحتملوه الى السجن ، وما لبثوا ان عادوا بفتاة جميلة كأنها الكوكب المشبوب حسنا وبهاء لولا سحابة غبراء من الحزن تتدجى فوق جبينها فقال الامير ما جريمتها فقال القاضى انها امرأة زانية دخل عليها رجل من أهلها فوجدها خالية بفتى غريب كان يحبها ويطمع فى الزواج منها قبل اليوم ، فهاج الناس واضطربوا وهتفوا القتل القتل الرجم الرجم انها الجريمة العظمي والخيانة الكبرى ، فقال الامير أين شاهدها ، فدخل قريبها الذى كشف أمرها فشهد عليها ، فهمس القاضى فى أذن

الامير ساعة ثم قال الامير تؤخذ الفتاة الى ساحة الموت فترجم عارية حتى لا يبقى على لحمها قطعة جلد ولا على عظمها قطعة لحم. فهلل الناس و كبروا إعجابا بعدل الامير وحزمه وإكباراً لسطوته وقوته وهتفوا له ولكاهنه وقاضيه بالدعاء، ثم نهض فنهض الناس بنهوضه ومضوا لسبيلهم فرحين مغتبطين وخرجت على أثرهم حزيناً مكتئبا أفكر فى هـذه المحاكمة الغريبة التى لم يسمع فيها دفاع المتهمين عن أنفسهم ولم يشهد فيها على المتهمين غير خصومهم ولم تقدر فيها العقوبات على مقدار الجرائم وأعجب للناس فى ضعفهم واستخذائهم أمام القوة القاهرة وغلوهم فى تقديسها وإعظامها وإغراقهم فى الثقة بها والنزول على حكمها عدلا كان أو ظلما رحمة أو قسوة وأردد فى نفسى هذه الكلمات

ليت شعرى ألا يوجد بين هؤلاء الثائرين على هؤلاء المساكين لص أو قاتل أو زان يعلم عذرهم فيرحمهم وينظر الى جرائمهم بالعين التى ينظر بها الى جريمته ويتمنى لهم من الرحمة والمغفرة ما يتمنى لنفسه إن قدر له أن يقف فى موقف مثل موقفهم أمام قضاة مثل قضاتهم ؟

ألا يجوز أن تكون الزانية غير زانية. والقاتل إنما قتل دفاعا عن عرضه أو ماله. واللص انما سرق ما يسد به جوعته أو جوعة أهل بيته ؟

ألم يرتكب الامير جريمة القتل مرة واحدة فى حياته فيرحم القاتلين عند النظر فى جرائمهم ؟

ألم يسقط فى يد الكاهن يوماً من الايام دينار من غير حله فتخف لوعة حزنه على الغرارة المسروقة من ديره ويغتفر هذه لتلك ؟

ألم تزل قدم القاضى ساعة واحدة فيما مر به من أيام حياته فتهدأ ثورة غضبه على الساقطين والساقطات ؟

من هم هؤلاء الجالسون على هذه المقاعد يحتكمون فى أرواح العباد وأموالهم كما يشاؤون ، ويقسمون السعود والنحوس بين البشر كما يريدون ؟

انهم ليسوا بأنبياء معصومين ، ولا أملاك مطهرين ، ولا يحملون فى أيديهم عهداً عن الله تعالى يكل اليهم فيه أمر عباده ويضع فى أيديهم حظوظهم وأنصبتهم ، فبأى حق يجلسون هذه الجلسة على هذه المقاعد ؟ ومن أى قوة شرعية يستمدون هذه السلطة التى يستأثرون بها من دون الناس جميعاً .

من هو الامير . أليس المستبد الاعظم فى الامة أو سلالة المستبد الاعظم الذى استطاع بقوته وقهره ان يتخذ من أعناق الناس وكواهلهم سلما يصعد منها إلى العرش الذى يجلس عليه ؟

من هو الكاهن : أليس أبرع الناس وامهرهم فى استغلال

النفوس الضعيفة والقلوب المريضة :

من هو القاضي . اليس أقدر الناس على الباس الحق صورة الباطل والباطل صورة الحق :

ومتى كان المستبدون واللصوص والظلمة أخياراً صالحين . أو أبراراطاهرين

عجيب جداً أن يقتل الرجلُ الرجلَ لغضبة يغضبها لعرضه أو شرفه فيسمي مجرماً ، فاذا قتل الاميرُ القاتلَ سمى عادلاً ، وان يسرق السارق اللقمة يقتات بها أو يقيت بهاعياله فيسمى لصاً فاذا أمر القاضي بقطع أطرافه والتمثيل به سمي حازماً،وأن تسقط المرأة سقطة ربما ساقها إليها خدعة من خدع الرجال أونزغة من نزغات الشيطان فيستنكر الناس أمرها ، ويستبشعون منظرها فاذا رأوها مشدودة إلى بعض الأنصاب عارية تتساقط عليها حجارة الرجم من كل صوب أنسوا بمشهدها وأعجبهم موقفها ومصيرها

كما ان النار لاتطفيء النار ،وشارب السم لايعالج بشربه مرة أخرى ،ومقطوع اليد اليمنى لايعالج بقطع اليد اليسرى، كذلك لا يعالج الشر بالشر ولا يمحى الشقاء في هذه الدنيا بالشقاء

ولم أزل أحدث نفسي بمثل هذا الحديث حتى أقبل الليل فمررت بساحة مظلمة موحشة تتطاير في جوها اسراب من الطير غادية رائحة فاخترقها حتى بلغت أبعد بقاعها عن أطرافها فرأيت منظراً

هائلا لا يزال أثره عالقاً بنفسي حتى اليوم

رأيت الشيخ جثة معفرة بالتراب لا رأس لها ولا أطراف، ثم رأيت رأسه وأطرافه مبعثرة حواليه كأنها نوادب يندبنه حاسرات ورأيت الفتى مشدوداً إلى شجرة فرعاء كانه بعض أغصانها وقد سال جميع مافي عروقه من الدم حتى أصبح شبحاً ماثلا، أوخيالا سارياً، ورأيت الفتاة كتلة حمراء من اللحم لا يستبين لها رأس ولا قدم وقد أحاطت بها اكوام من الحجارة المخضبة بدمائها، ثم رأيت بجانب هذه الجثث الثلاث حفرة جوفاء تفهق بالدم فعلمت انها مجمع دماء هؤلاء المساكين فشعرت كأن سحابة سوداء تهبط على عيني قليلا قليلا حتى غاب عن نظري كل شيء، فسقطت في مكاني لا أشعر بشيء مما حولي فلم استفق حتى مضت دولة من الليل ففتحت عيني فاذا شبح اسود يدنو مني رويداً رويداً فارتعت لمنظره وفزعت الى ساق الشجرة فاختبأت وراءه، فما زال يتقدم حتى صار تحت الشجرة فاشعل مصباحاً صغير كان في يده فتبينته على نوره فاذا عجوز شمطاء في زي المساكين وسحنتهم فمشت تتصفح وجوه القتلى حتى بلغت مصرع الشيخ فجثت بجانبه ساعة تبكيه وتندبه ثم مشت الى راسه واطرافه فجمعتها وضمتها إلى جثته ثم احتفرت له حفرة تحت ساق الشجرة فدفنته فيها وقامت على قبره تودعه وتقول : «في سبيل الله ما لقيت في سبيلي وسبيل احفادك

للبؤساء ايها الشهيد المظلوم ، وفي ذمة الله وكنفه روح طار عن جسدك ، وجسد ضمه قبرك فقد كنت خير الناس زوجاً وابا ، واطهرهم لسانا ويدا ،وأشرفهم قلباًونفساً ، فاذهب الى ربك لتلقى جزاءك عنده واطلب اليه الرحمة لجميع الناس حتى لقاتليك وظالميك واسأله ان يلحقني بك وشيكا فلا شيء يعزيني عنك بعد فراقك إلا الامل في لقائك ، فأبكاني بكاؤها ،واحزنني منظرها،ووقع في نفسي انها صادقة فيما تقول وان شيخها شهيد من شهداء القضاء واحببت ان اقف على قصتها وقصته فبرزت من مخبئي ومشيت إليها فارتاعت لمرآى عند النظرة الأولى ثم سكنت كأنما ذكرت ان لاقيمة لمصائب الحياة بعد مصابها الذي نزل بها منذ اليوم فابتدرتها بقولي لاتراعي ياسيدتي فانا رجل غريب عن هذا البلد لااعرف من شانه ولا من شان اهله شيئاً وقدرايت الساعة موقفك على هذا القبر وتفجعك على ساكنه فرثيت لك وبكيت لبكائك وتمنيت لو افضيت الى بذات نفسك علني استطيع ان اكون عونا لك على همك ،فاستعبرت باكية وانشأت تحدثني وتقول

إن زوجي لم يكن في يوم من ايام حياته لصاً ولا سارقاً بل قضى أيام شبابه وكهولته عاملا مجدا لايفتر ساعة واحدة عن السعي في طلب رزقه ورزق اهل بيته حتى كبر ولده وكان واحده فاشتد به ساعده وحمل عليه بعض ما كان يستقل بحمله من الهم ،

وما هو إلا ان نعمنا به وبمعونته برهة من الدهر حتى نزلت به نازلة القضاء، فذهبت بحياته احوج ماكنا إليه وخلف وراءه خمسة اولاد لا يتجاوز اكبرهم العاشرة من عمره وكانت قد ادركت اباه الشيخوخة فاجتمع عليه هم الكبر وهم الثكل فأصبح عاجزاً عن العمل لا يستطيعه إلا فى الفينة بعد الفينة [1] واصبحنا جميعاً فى حالة من الشقاء والبؤس لا يَعرف مكانها من نفوسنا إلا من ألمّ به طرف منها حتى طلعت علينا شمس يوم من الأيام وليس فى يدنا ما نقوّم به أصلاب صغارنا ولا ما نعللهم به تعليلا فأسقط فى يدنا وعلمنا أنا هالكون جميعاً ان لم يتداركنا الله برحمة من عنده، لم أرَ بداً من أن ألجأ الى الخُطة التى يلجأ اليها كل مضطر عديم فبرزتُ للناس أتعرّض لمعروفهم واستندى ماء اكفهم فلم أجد بينهم من يحسن إلىّ بجرعة ولا مُضغة ولا من يدلنى على سبيل ذلك ، وكان أكبرَ ما حال بينى وبينهم وصرف وجوههم عنى أنى ألبس مرقعة الشحاذين ولا أحمل ركوتهم [2] فعدت الى منزلى وبين جنبيّ من الهم ما الله به عليم فرأيت الاطفال سهداً يتضاغون [3] جوعاً ورأيت الشيخ جالساً بينهم يسقى تراب الارض بدموعه ويقرع كفه

(١) الفينة الساعة والحين

(٢) الركوة وعاء للماء على صورة الزورق يحمله الشحاذون

(٣) يتضاغون من الجوع يتضورون منه

بكفه لا يعلم ماذا يصنع ولا كيف يحتال ، ولو أن شخص الموت برز الىّ فى تلك الساعة لكان منظره أهون على نفسى من منظر هؤلاء الصبية وهم يحدقون فى وجهى عند دخولي ويدورون بأعينهم حولى ليروا هل عدت إليهم بما يسد جوعتهم ؟ وما عدت إليهم إلا باليأس القاتل ، والكمد الشامل ، فتقدمت إلى الشيخ وقلت له إن فى دير المدينة يزعمون مالا للصدقات يتولى الكاهن الأعظم انفاقه على الفقراء والمساكين فلو ذهبت اليه وكشفت له خلتك وسألته أن يمنحك علالة من ذلك المال تستعين بها على أمرك لرجونا ان نطفىء لوعة هؤلاء الأطفال المساكين ، فاستنار وجهه بنور الأمل وقام الى عصاه فاعتمد عليها ومشى الى الدير حتى بلغه فصعد إلى حجرة الكاهن حتى وقف بين يديه فنفض له جملة حاله وسكب تحت قدميه جميع ما أبقت يد الايام فى عينيه القريحتين من دموع فاستقبله الكاهن باقبح مايستقبل به سائلا مسؤول وقال له ان الدير لا يحسن إلا إلى الذين أسلفوه الاحسان من قبل وما كنت فى يوم من أيام رغدك ورخائك من المحسنين إليه ، فاذهب لشأنك فأبواب الرزق واسعة بين يديك فان ضاقت بك فابواب الجرائم اوسع منها ، فخرج من حضرته كئيبا محزونا لا يرى فضاء الدنيا فى نظره الا ككفة الحابل [1] او الخوص القطاة [2] حتى نزل الى ساحة الدير

---

(١) الحابل الصائد لأنه يرمى الحبالة للصيد وكفته حبالته (٢) فحوص القطاة

فلمح فى احدى زواياها غرارة [١] دقيق فحدثته نفسه بها وماكانت تحدثه لولا العوز والفاقة ثم ادركه الحياء فاغضى عنها واستمر سائرا فى طريقه حتى صار بجانبها فوقع نظـره عليها مرة اخـرى فعاوده حديثه الأول فحاول دفعه فلم يندفع فجلس بجانبها يحدث نفسه ويقول: «ان الطعام طعام الفقراء والمساكين وانا فقير مسكين لا اعلم اسوار هذه المدينة ولا فى جميع ارباضها رجلا احوج ولا افقر مني ، فان كان الطمع فى هذه الغرارة جريمة فقد اذن لى الـكاهن بارتـكاب الجرائم فى سبيل العيش »ثم تقدم اليها فأحتـملها على ظهره ومشى بها جاهدا مترجحا فما تجاوز عتـبة الدير حـتى اثقله الحمل وشعر انه عاجز عن المسير فحدثته نفسه بالقائه عن ظهره ثم تمثل له منظر أحفاده الصغار وهم ألقاء [٢] تحت جدران البيت يتضورون جوعاً فحمل على نفسه ومشى يعتمد على عصاه مرة وعلى الجدران اخرى حتى نال منه الجهد فأحس كأن أنفاسه قد جمدت فى صدره لا تهبط ولا تعلو وان ما كان باقيا فى عينيه من نور قـد انطفأ دفعة واحدة فاصبح لا يرى شيئا مما حوله واذا نفثة من الدم قد دفقت من صدره فانحدرت على ردائه فسقط فى مكانه

مجتثها لأنها خصت عنه التراب لتبيض فيه

(١) الغرارة الجوالق

(٢) الالقا جمع لقى كفتى ، واللقى الشى الملقى المطروح

مغشيا عليه ،ولم نزل على حاله تلك حتى مر به العسس[1] فرأوه ورأوا الغرارة بجانبه فارتابوا به وكان رهبان الدير قد أخذوا يتصايحون فيما بينهم الغرارة الغرارة وينشدونها فى انحاء الدير حتى يئسوا منها فخرجوا يطلبونها فى كل مكان حتى التقوا بالعسس حول مصرع الشيخ فعرفوا ضالتهم وما هى إلا ساعة حتى كانت الغرارة فى الدير وكان الشيخ فى السجن ،ثم كان بعد ذلك ما رأيت من أمره فوا اسفا عليه لقد مات شهيدا مظلوما ووارحمتاه لى ولأطفالى البؤساء المساكين من بعده

ثم نهضت من مكانها ومسحت عبرتها بطرف ردائها ونظرت الى القبر نظرة طويلة وقالت : « الوداع يارفيق صباى وعماد شيخوختي ، الوداع ياخير الأزواج وابر العشراء ، الوداع حتي يجمع الله بينى وبينك فى دار جزائه » ثم انكفأت راجعة فى الطريق التى جاءت منها

وماهو الا ان تغلغل شخصها فى اعماق الظلام حتى رايت شبحا آخر يتراءى من حيث اختفى الشبح الاول واقبل يتقدم نحوى متسللا كانما يختلس خطواته اختلاسا فاختبأت وراء الشجرة لأرى ماهو صانع وكان القمر قد بدا يشرف على الوجود من مطلعه ويرسل الخيوط الاولى من أشعته على تلك الساحة الكبري فرأيت الشبح على نوره

(١) العسس الطائفون بالليل لحراسة الناس او كشف اهل الريبة

فاذا فتاة جميلة باكية لم أرَ فى حياتى دمعةً على خد أجمل من دمعتها على خدها فدارت بعينيها لحظة حتى وقع نظرها على جثة المصلوب بين أغصان الشجرة فمشت اليهِ ومدت يدها الى الحبل الملتف بهِ فعالجت عقدته حتى انحلت ثم تلقته على يدها وأضجعته على الارض ووقفت بجانبه ساعة تنظر اليه جامدة ساكنة كأنها غير آبهةٍ ولا حافلة ثم هتفت صارخة واشقيقاه ! وسقطت فوقه تضمه وتقبله وتلثم شعره وجبينه وتزفرُ فيما بين ذلك زفيراً شديداً كأنما تنفث أفلاذ كبدها نفثاً حتى نال منها الجهد فمالت برأسها وهوت بجانبه هوىّ الجذع الساقط لاحراك بها ، فأهمنى أمرها وخفت ان يكون قد لحق بها مكروه فمشيت اليها حتى صرت بجانبها فشعرت بأنفاسها الضعيفة تتردد فى صدرها فعلمت أنها حية فجلست فوق رأسها أندبها وأدعو الله لها حتى استفاقت بعد برهة فرأتنى بجانبها فنظرت الىّ نظرة حائرة ثم تقدمتْ نحوى وقالت على من تبكى أيها الرجل الغريب فى هذا المكان ؟ قلت أبكى عليك ياسيدتى وعلى فقيدك البائس المسكين ، قالت نعم انه بائس مسكين فابك عليه ياسيدى بكاء كثيراً فقد كان زينة الشباب وزهرة الحياة وريحانة النفوس ومتعة الافئدة والقلوب ، ولقد ظلموه اذ قتلوه فما كان قاتلا ولا مجرماً ولكنه رجل رأى عرضه فريسة فى يد من يريد تمزيقه فقطع تلك اليد الممتدة اليه وانتقم لنفسه وللشرف

والفضيلة منها ، ولو أنصفوه لاستبقوه رحمة به وبشبابه فما أجرم من ذاد عن عرضه ، ولا أثم من قتل قاتله ، قلت هل لك أن تقصى على قصته ياسيدتى ؟ قالت نعم :

نزل قريتنا فى صباح يوم من الأيام أحد قواد الامير الذين يطوفون البلاد لجمع الضرائب منها فما زال يمر بأبيات القرية بيتاً بيتاً حتى بلغ منزلنا وكنت واقفة على بابه فنظر الى نظرة مريبة طار لها قلبي خوفا وفزعا ثم سألنى عن أخى فدللته عليه فسأله عن المال فاستنسأه (١) اياه أياما قلائل حتى يبيع غلته فأبى الا أن يتعجله الساعة أو يأخذنى رهينة عنده الى يوم الوفاء وغمز بى بعض أعوانه فداروا حولى وكنت أسمع قبل اليوم حديث أولئك الفتيات الشقيات اللواتى يدخلن قصر الامير رهائن فلا يخرجن منه الا ساقطات أو محمولات الى قبورهن ففزعت الى أخي والصقت به فوقف بينى وبين الرجل وقال له لاشأن لك مع الفتاة انما أنا صاحب المال والمأخوذ به فان كان لابد لك من رهينة فانا رهينة مالى حتى يصل اليك ، فقال له لابد لى من المال أو الرهينة ولا بد من الرهينة التى أريدها فان أبيت فحياتك فداء عنها ، فغضب أخى غضبة انتفض لها فى جبينه عرق لم أره فى ساعة من ساعات غضبه قبل اليوم وقال له « فلتكن حياتى فداء لشرفى » ثم جرد

---

(١) استنسأ غريمه الدين طلب منه أن ينسئه اياه أى يؤجله له

سيفه وضربه به ضربة طارت برأسه ووقف فى مكانه لا يبرحه وسيفه يقطر دما حتى غله[1] الأعوان واحتملوه الى السجن ، فتلك حياته ياسيدى وذاك مماته ، فلئن بكيته فانما أبكى فتى الفتيان همة ونجدة ، ونادرة الرجال عزة وإباء ، وأفضل الأخوة رحمة وحنانا

ثم قالت هل لك أن تعينني ياسيدى على دفنه قبل أن يحول النهار بينى وبينه فقد أصبحت واهية متضعضعة لا أقوى على شىء فقمت الى الشجرة فاحتفرت حول ساقها حفرة بجانب حفرة الشيخ فواريته فيها فتقدمت الفتاة الى القبر وجثت بجانبه ساعة مطرقة ساكنة لا أعلم هل هي باكية أو ذاهلة حتى فارقت مكانها فرأيت تربة القبر مخضلة بدموعها ثم مدت يدها الى وقالت : شكراً لك ياسيدى فقد أعنتنى على موقف لا يجد فيه مستعين معينا ، ومضت لسبيلها

فاتبعتها نظرى حتى اختفت آخر طية من طيات ردائها فعدت الي نفسى فاذا جثة الفتاة المرجومة لا تزال فى مكانها فهاجنى منظرها وقلت فى نفسى : اننى لا أدخر لنفسى عملا أرجو فيه رحمة الله واحسانه يوم جزائه أفضل من مواراة هذه المسكينة التراب، فاحتفرت لها حفرة بجانب حفرة الشهيدين ثم القيت عليها ردائي

(١) غله وضع فى عنقه الغل

واحتملتها على يدى حتى اضجعتها فى حفرتها ، فانى لأحثو عليها التراب اذ شعرت بحركة ورائي فالتفت فاذا فتى يافع متلفع ببردة سوداء لا يستبين منها غير بياض وجهه فابتدرنى بقوله من صاحب هذا القبر الذى تدفنه يا سيدى ؟ قلت فتاة مرجومة رأيت جثتها الساعة منبوذة فى هذا العراء فرحمت مصرعها واحتفرت لها هذا القبر الذى تراه ، قال ان لى يا سيدي مع هذه الفتاة شأنا فهل تأذن لى ان اودعها الوداع الأخير قبل ان يحول التراب بينى وبينها ؟ قلت نعم شأنك وما تريد ، وتنحيت قليلا فدنا من القبر وجثا فوق ترابه وظل يناجى الميتة نجاء خلت ان الكواكب تردده فى سمائها والرياح ترجعه فى اجوائها ، حتى اشتفت نفسه فقام الى التراب يهيله عليها حتى واراها ثم التفت الىّ وقال لقد شكر الله لك ياسيدى هذه اليد التى اسديتها الى هـذه الفتاة المظلومة بستر ما كشف الناس من عورتها ، وحفظِ ما أضاعوا من حرمتها ، فجزاك الله خيراً بما فعلت ، وأحسن اليك كما أحسنت اليها ، وأراد الرجوع فاستوقفته وقلت له : وهل ماتت هذه الفتاة مظلومة كما تقول ؟ فانفرجت شفتاه عن ابتسامة مرة ونظر الىّ نظرة هادئة مطمئنة وقال نعم يا سيدى ولو لا ذلك ما رأيتنى الساعة واقفا على حافة قبرها اندبها

أنا الرجل الذى اتهموها به وأستطيع أن أقول لك كما أقول

لربي يوم أقف بين يديه رافعا اليه ظُلامتها إنها بريئة مما رموها به وانها اطهر من الزهرة المطلولة ، وأنقي من القطرة الصافية

لقد أحببت هذه الفتاة مذ كانت طفلة لاعبة وأحبتني كذلك ثم شببنا وشب الحب معنا فتعاقدنا على الوفاء والاخلاص ثم خطبتها الى أبيها فأخطبني (١) راضيا مسرورا حتى اذا لم يبق بيني وبين البناء بها الا أيام معدودات اذ نزلت بأبيها نازلة الموت فعلمنا أن لا بد لنا من الانتظار بأنفسنا عاما كاملا ففعلنا حتى اذا انقضى العام أو كاد حدث ان ذهبت الفتاة الى قاضى المدينة فى أمر يتعلق بميراثها فرآها القاضى فتبعتها نفسه فأرسل وراء عمها وكان ولى امرها بعد أبيها وهو رجل من الطامعين المداهنين الذين لا يبالون أن يخوضوا بحرا مائجا من الدم اذا تراءى لهم على شاطئه الثانى دينـار لامع فعرض عليه رغبته فى الزواج من ابنة أخيه فطار بهذه المنحة فرحا وسرورا ولم يتردد فى اجابة طلبه وعاد الى الفتاة يحمل اليها هذه البشرى فاستقبلتـه بوجه باسر وقالت إننى لا أستطيع ان اكون خطيبة رجلين فى آن واحد ، فلم يُبَل بقولها وقال لها ستتزوجين ممن أريد طائعـة او كارهة فلا خيار لك فى نفسك انما الخيار لى فيك وحدى ، وما هى الا أيام قلائل حتى أعدوا لها عُدد زواجها وسموا يوما لزفافها ، فما غربت شمس ذلك اليوم حتى جمعت ما كان

---

(١) أخطبه قبل خطبته

لها فى بيتها من ثياب وحلية وخرجت تحت ستار الليل هائمة على وجهها لا تعلم اين تذهب ولا أى طريق تسلك ، وكان عمها قد رفع الى القاضى أمر فرارها فبث عليها عيونه وارصاده يطلبونها فى كل مكان حتى لمحها بعضهم على البعد جالسة تحت بعض الجدران فأقبل عليها فذعرت لمرآه وتركت حقيبتها فى مكانها وفرت من بين يديه تعدو عدواً سريعاً وكنت عائداً فى تلك الساعة الى منزلى فرأتنى فألقت نفسها علىّ وقالت انهم يتبعوننى وانهم ان ظفروا بى قتلونى فارحمنى يرحمك الله ، فأهمنى أمرها وذهبت بها الى منزلى وأخفيتها فى بعض حجراته وما هي إلا ساعة حتى دخل عمها ووراءه أعوان القاضى يطلبها طلباً شديداً فأنكرت رؤيتها فلم يصدقنى وأخذ يضرب أبواب الحجرات باباً باباً حتى ظفر بها فصاح : ان الفتاة زانية وهذا صاحبها فأقسمتُ له بكل محرّجة من الايمان إنها بريئة مما يرميها به ، فلم يصغَ إلىّ ، وأمر الأعوان فاحتملوها وحاولت أن أحول بينهم وبينها فضربنى أحدهم على رأسى ضربة طارت بصوابى فسقطت مغشياً علىّ ولم أستفق إلا بعد برهة طويلة فوجدت الحمى قد أخذت مكانها من جسمي فلزمت فراشى بضعة أيام لا أفيق حتى يتمثل لى ذلك المنظر الذى رأيته فأشعر بالرعدة تتمشى فى أعضائى فأعود إلى ذهولى واستغراقى حتى أدركتنى رحمة الله فأبللت منذ الأمس بعض الإبلال واستطعت ان أخرج الليلة من منزلى

فعلمت ماتم من أمر الفتاة فجئت كما ترانى أودعها الوداع الأخير وأوارى جثتها التراب ، وما أنا بالسالى عنها ولا بالذائق حلاوة العيش من بعدها حتى ألحق بها

ثم القي على قبرها نظرة جمعت فى طياتها جميع معاني النظرات البائسات من حزن ويأس ولوعة وشقاء ومضى لسبيله

فما أبعد الا قليلا حتى رأيت القمر ينحدر الى مغربه ثم ما لبث ان اختفي فاذا الفضاء ظلمة وسكون ، واذا الساحة وحشة وانقباض ، فصعدت الى ربوة عليـة مشرفة على القبور الثلاثة فتلففت بردائى واخذت مضجعي منها وانشأت أحدث نفسى وأقول

ليت شعرى الا يوجد فى هذه الدنيا عادل ولا راحم ؟ فان خلت منهما رقعة الارض فهل خلا منهما وجه السماء ؟

أجرم الزعيم الدينى لأنه ضن على ذلك الشيخ المسكين بدرهم من مال الله يسد به جوعته وجوعة أهل بيته فاضطر الرجل الى ارتكاب جريمة السرقة فعوقب السارق على سرقته ، ولم يعاقب القاسى على قسوته ، ولو لا قسوة القاسى ما كانت سرقة السارق

وأجرم الامير لأنه أرسل قائده لاختطاف فتاة حرة لا تؤثر أن تجود بعرضها فاضطر أخوها الى الذود عنها فارتكب جريمة القتل فى ذياده فعوقب الفتي على جريمته وسلم دافعه الى الإجرام

وأجرم القاضى لأنه أراد ان يكره فتاة لا تحبه على الزواج منه ففررت من وجهه فعاقبوها على فرارها ، ولم يعاقبوه على ظلمه واستبداده

وهكذا أصبح المجرم بريئاً ، والبرىء مجرماً ، بل أصبح المجرم قاضي البرىء وصاحب النظر فى أمره

فهل تسقط السماء على الأرض بعد اليوم أم لا تزال تنيرها بكواكبها ونجومها ، وتمطرها غيثها ومزنها ؟

ثم التفت الى مصرع المقبورين فوقع نظرى على بركة الدم التى اجتمعت فيها دماء هؤلاء الشهداء فرأيت خيال نجم فى السماء يتلألأ فوق صفحتها فرفعت نظرى الى ذلك النجم فاذا هو المريخ (١) يتلهب ويضطرم كأنه جمرة الغيظ فى أفئدة الموتورين فعلق نظرى به ساعة ثم رأيت كأنه يهبط الى الارض شيئاً فشيئاً فيعظم جرمه كلما ازداد هبوطه حتى اذا لم يبق بينه وبين الارض الا ميل أو بعض الميل إذا به ينتفض انتفاضاً شديداً وإذا هو على صورة ملك من ملائكة العذاب ينبعث الشرر من عينيه ومنخريه ويتطاير من أجنحته وأطرافه فلم يزل هابطا حتى نزل على رأس الشجرة التى تظلل قبور الشهداء ثم صفق بجناحيه تصفيقة اهتزت لها جوانب الارض واضاءت بها الارجاء ثم اخذ ينطق

(١) يسمى قدماء اليونان في خرافاتهم المريخ إله الحرب

بصوت كأنه جلجلة الرعد فى أعماق السماء ويقول

ها هم الناس قد عادوا الى ما كانوا عليه ، وها هى الأرض قد ملئت شراً وفساداً حتى لم يبق فيها بقعة طاهرة يستطيع أن يأوى اليها فى مهبطه مَلَكٌ من أملاك السماء

ها هم الأقوياء قد ازدادوا قوة ، والضعفاء قد ازدادوا ضعفاً ، وها هي لحوم الفقراء تنحدر فى بطون الاغنياء انحداراً ، فلا الأولون بمستمسكين ، ولا الآخرون بقانعين

ها هم الفقراء يموتون جوعاً فلا يجدون من يحسن اليهم ، والمنكوبون يموتون كمداً فلا يجدون من يعينهم على همومهم واحزانهم

ها هم الأمراء قد خانوا عهد الله وخفروا ذمته فأغمدوا السيوف التى وضعها الله فى أيديهم لاقامة العدل والحق وتقلدوا سيوفاً غيرها لا هى الى الشريعة ولا الى الطبيعة ومشوا بها يفتحون لأنفسهم طريق شهواتهم ولذاتهم حتى ينالوا منها ما يريدون

ها هم القضاة قد طمِعوا وظلموا ووضعوا القانون ترساً أمام أعينهم يصيبون من ورائهِ ولا يصابون ، وينالون من يشاؤون تحت حمايته ولا ينالون

ها هم زعماء الدين قد أصبحوا زعماء الدنيا فحولوا معابدهم الى مغاور لصوص يجمعون فيها ما يسرقونه من أموال العباد ثم يضنون

بالقليل منه على الفقراء والمساكين

ها هم الناس قد أصبحوا أعوانا للامراء على شهواتهم والقضاة على ظلمهم وزعماء الاديان على لصوصيتهم ، فلتسقط عليهم جميعا نقمة الله ملوكا ومملوكين ، ورؤساء ومرءوسين

لتسقط العروش ولتهدم المعابد ولتتقوض المحاكم وليعمّ الخراب المدن والامصار ، والسهول والاوعار ، والنجاد والاغوار ، ولتغرق الارض فى بحر من الدماء يهلك فيه الرجال والنساء ، والشيوخ والاطفال ، والاخيار والاشرار ، والمجرمون والابرياء ، وما ظلمهم الله ولكن أنفسهم يظلمون

وما انتهى من دعوته تلك حتى رأيت بركة الدم تفور كما فار التنور يوم دعوة نوح ثم فاضت الدماء منها ومشت تتدفق فى الارض تدفق السيل المنحدر وإذا الارض بحر أحمر يزخر ويعتلج ويكتسح أمامه كل شيء من زرع وضرع ، وقصور وأكواخ ، وحيوان وانسان ، وناطق وصامت ، ثم شعرت به يعلو شيئا فشيئا حتى ضرب بأمواجه رأس الربوة التى أنا جالس فوقها فصرخت صرخة عظمى فاستيقظت من نومى وكان ذلك فى صباح اليوم الثامن والعشرين من شهر يوليو سنة ١٩١٤ فاذا صائح يصيح تحت نافذة غرفتى : إعلان الحرب !

الهـــاوية

« موضوعة »

ما أكثر أيام الحياة وما أقلها !

لم أعش من تلك الاعوام الطوال التى عشتها فى هذا العالم إلا عاماً واحداً مر بى كما يمر النجم الدهرى فى سماء الدنيا ليلة واحدة ثم لا يراه الناس بعد ذلك

قضيتُ الشطر الاول من حياتى افتش عن صديق ينظر الى اصدقائه بعين غير العين التى ينظر بها التاجر الى سلعته، والزارع الى ماشيته ، فأعوزنى ذلك حتى عرفت فلاناً منذ ثمانى عشرة عاماً فعرفت امرأ ما شئتُ ان أرى خَلة من خلال الخير والمعروف فى ثياب رجل الا وجدتها فيه ولا تخيلت صورة من صور الكمال الانسانى فى وجه انسان إلا اضاءت لى فى وجهه فجلّت مكانته عندى ونزل من نفسى منزلة لم ينزلها أحد من قبله وصفَتْ كأس الود بيني وبينه لا يكدرها علينا مكدر حتى عرَض لى من حوادث الدهر ما أزعجني عن مستقرى فهجرت مصر الى مسقط رأسى غير آسف على شىء فيها إلا على فراق ذلك الصديق الكريم

فتراسلنا برهة من الزمان ثم فترت عنى كتبه ثم انقطعت فحزنت لذلك حزنا شديداً وذهبت بى الظنون فى شأنه كل مذهب إلا مذهبا واحدا وهو الشك فى صدقه ووفائه ، وكنت كلما هممت بالمصير اليه لتعرف حاله قعد بى عن ذلك هم كان يقعدنى عن كل شأن حتى شأن نفسى فلم أعد الى مصر إلا بعد سبعة أعوام فكان أول همى يوم هبطت ارضها ان أراه فذهبت الى منزله فى الساعة الاولى من الليـل فرأيت ما لا تزال حسرته متصلة بقلبي حتى اليوم

تركت هـذا المـنزل فردوساً صغـيراً من فراديس الجنان تتراءى فيه السعادة فى الوانها المختلفة وتترقرق وجوه ساكنيه بشراً وسرورا ثم زرته اليوم فخيل الىّ انني امام مقبرة مظلمـة ساكنـة لا يهتف فيها صوت ولا يـتراءى فى جوانبها شخص ولا يلمع فى ارجائها مصباح فظننت انى اخطأت المـنزل الذى اريده او انني بين يدى منزل مهجور حتى سمعت بكاء طفل صغـير ولمحت فى بعض النوافذ نورا ضعيفا فمشيت الى الباب فطرقته فلم يجبني احد فطرقته اخري فلمحت من خصاصه (١) نوراً متحركا ثم لم يلبث ان انفرج لى عن وجه غلام صغير فى اسمال بالية يحمل فى يده مصباحاً ضئيلا فتأملته على ضوء المصباح

(١) خصاص الباب خرقه

فرأيت في وجهه صورة أبيه فعرفت أنه ذلك الطفل الجميل المدلل الذي كان بالامس زهرة هذا المنزل وبدر سمائه ، فسألته عن أبيه فأشار الى بالدخول ومشى أمامى بمصباحه حتى وصل بى الى قاعة مغبرة شعثاء بالية المقاعد والاستار لولا نقوش أعرفها من قبل لاحت لي في بعض جدرانها كباقى الوشم فى ظاهر اليد ما عرفت أنها القاعة التى قضينا فيها ليالى السعادة والهناء اثنى عشر هلالا ، ثم جرى بينى وبينه حديث قصير عرف فيه من أنا وعرفت منه أن أباه لم يعد الى المنزل حتى الساعة وأنه عائد عما قليل ثم تركني ومضى وما لبث إلا قليلا حتى عاد يقول لى : إن والدته تريد أن تحدثنى حديثا يتعلق بوالده ، فخفق قلبى خفقة الرعب والخوف وأحسست بشر لا أعرف مأتاه (١) ثم التفت فاذا امرأة ملتفة برداء أسود واقفة على عتبة الباب فحييتها فحيتنى ثم قالت لى هل علمت ماصنع الدهر بفلان من بعدك ؟ قلت لا فهذا أول يوم هبطت فيه هذا البلد بعد مافارقته سبعة اعوام قالت ليتك لم تفارقه فقد كنت عصمة للرجل فيه وحمى له من كل سوء فما هو الا ان فارقته حتي أحاطت به زمرة من زُمرِ الشيطان وكان فتى كما نعلمه غريراً فما زالت تغريه بالشر وتزخرفه له حتى سقط فيه فسقطنا جميعاً فى هذا الشقاء الذى تراه ، قلت وأى شر تريدين ياسيدتى

---

(١) المأتى الوجه الذى يأتى منه الشيء

ومن هم الذين أحاطوا به فأسقطوه ؟ قالت سأقص عليك كل شيء فاستمع لما أقول

ما زال الرجل بخير حتى اتصل بفلان رئيس ديوانه وعلقت حباله بحباله وأصبح من خاصته الذين لا يفارقون مجلسه حيث كان ولا تزال نعالهم خافقة وراءه في غدواته وروحاته فقد استحال من ذلك اليوم امره وتنكرت صورة اخلاقه واصبح منقطعاً عن أهله وأولاده لا يراهم الا في الفَيْنَة بعد الفَيْنَة [1] وعن منزله لا يزوره الا في أخريات الليال ، ولقد اغتبطت في مبدأ الامر بتلك الحظوة التي نالها عند ذلك الرجل والمنزلة التي نزلها من نفسه ارجو له من ورائها خيراً كثيراً مغتفرة في سبيل ذلك ما كنت اشعر به من الوحشة والالم لانقطاعه عني واغفاله النظر في شأن بيته وشؤون أولاده حتي عاد في ليلة من الليالى شاكيا متألما يكابد غصصاً شديدة وآلاماً جساماً فدنوت منه فشممت من فمه رائحة الخمر فعلمت كل شيء

علمت ان ذلك الرئيس العظيم الذى هو قدوة مرؤوسيه في الخير ان سلك طريق الخير وفي الشر ان سلك طريق الشر قد قاد زوجي الفتى الضعيف المسكين الى شر الطريقين ، وسلك به اسوأ السبيلين ، وانه ما كان يتخذ صديقا كما كنت اظن بل كان

---

(١) الفينة الساعة والحين

يتخذه نديما ، فتوسلت اليه بكل عزيز عليه وسكبت بين يديه من الدموع كل ما تستطيع ان تسكبه عين رجاء ان يعود الي حياته الاولى التى كان يحياها سعيدا بين اهله واولاده فما اجديت عليه شيئا ، ثم علمت بعد ذلك ان اليد التى ساقته الى الشراب قد ساقته الى اللعب فلم اعجب لذلك لانى اعلم ان طريق الشر واحدة فمن وقف برأسها لا بد له من ان ينحدر فيها حتي يصل الى نهايتها فاصبح ذلك الفتى النبيل الشريف الذى كان يعف بالأمس عن شرب الدواء اذا اشتم فيه رائحة الشراب ، ويستحى ان يجاس فى مجتمع يجاس فيه قوم شاربون ، سكيرا مقامرا مستهترا فى حالتيه لا يتجمل ولا يتستر ولا يتقى عارا ولا مأثما ، واصبح ذلك الاب الرحيم والزوج الكريم الذى كان يضن بأولاده ان يعلق بهم الذر ، وبزوجته ان يتجهم [1] لها وجه السماء ، ابا قاسيا وزوجا سليطا يضرب اولاده كلما دنوا منه ويشتم زوجته وينتهرها كلما رآها ، واصبح ذلك الرجل الغيور الضنين بعرضه وشرفه لا يبالى ان يعود الى المنزل فى بعض الليالى فى جمع من عُشَرائه الأشرار ، فيصعد بهم الى الطبقة التى أنام فيها أنا وأولادى فيجلسون فى بعض غرفها ولايزالون يشربون ويقصفون [2] حتى يذهب بعقولهم الشراب

(١) تجهم له استقبله بوجه كريه
(٢) قصف الرجل أقام فى أكل وشرب ولهو

فيهتاجون ويرقصون ويملأون الجو صراخا وهتافا ثم يتعادون[1] بعضهم وراء بعض فى الابهاء[2] والحجرات حتى يلجؤا الى باب غرفتى وربما حاول بعضهم العبث بي اونزع ردائى عن وجهى على مرأى منه ومسمع فلا يقول شيئا، ولا يستنكر أمرا، فأفر من بين أيديهم من مكان الى مكان وربما فررت من المنزل جميعه وخرجت بلا ازار ولا خمار غير ازار الظلام وخماره حتي اصل الى بيت امرأة من جاراتى فأمضي عندها بقية الليل

وهنا تغيرت صوتها فأمسكت عن الحديث هنيهة واطرقت برأسها فعلمت انها تبكي فبكيت بينى وبين نفسى لبكائها ثم رفعت رأسها وعادت الى حديثها تقول

وما هى الا اعوام قلائل حتى انفق جميع ما كان فى يده من المال فكان لا بد له ان يستدين ففعل فاثقله الدين فرهن فعجز عن الوفاء فباع جميع ما يملك حتى هذا البيت الذى نسكنه ولم يبق فى يده غير راتبه الشهرى الصغير، بل لم يبق فى يده شيء حتى راتبه لانه لا يملكه الا ساعة من نهار ثم هو بعد ذلك ملك الدائنين او غنيمة المقامرين

هذا ما صنعت يد الدهر به اما ما صنعت بى وبأولادي فقد

---

(١) من العدو وهو الجرى

(٢) الابهاء جمع بهو وهو البيت المقدس أمام البيوت

فقد مرّ على آخر حلية بعتها من حلاى عام كامل وها هى حوانيت المرابين والمسترهنين ملآى بملابسى وأدوات بيتى وأثاثه ولولا رجل من ذوى قرباى رقيقُ الحال (١) يعود علىّ من حين الى حين بالنزر القليل مما يستلّهُ من أشدقِ عياله لهلكتُ وهلك أولادى جوعاً

فلعلك تستطيع ياسيدى أن تكون عوناً على هذا الرجل المسكين فتنقذه من شقائهِ وبلائه بما ترى له فى ذلك من الرأى الصالح وأحسَبُ أنك تقدر منه للمنزلة التى تنزلها من نفسه على ما عجز عنه الناس جميعاً فانك إن فعلت أحسنت إليه وإلينا إحساناً لا ننسى يدك فيه حتى الموت

ثم حيتنى ومضت لسبيلها فسألت الغلام عن الساعة التى أستطيع أن أرى أباه فيها فى المنزل فقال انك تراه فى الصباح قبل ذهابه الى الديوان فانصرفتُ لشأني وقد أضمرتُ بين جنبيّ لوعة مازالت تقيمنى وتقعدني وتذود عن عينيّ سنة الكرى حتى انقضى الليل وما كاد ينقضى

ثم عدت فى صباح اليوم الثانى لأرى ذلك الصديق القديم الذى كنت بالأمس أسعد الناس به ولا أعلم ما مصير أمرى معه الآن وفى نفسى من القلق والاضطراب ما يكون فى نفس الذاهب

(١) رقة الحال كناية عن الفقر

إلى ميدان سباق قد راهن فيه بجميع ما يملك فهو لا يعلم أيكون بعد ساعة واحدة أسعد الناس أم أشقاهم

* * *

الآن عرفتُ أن الوجوه مرايا [١] النفوس تضيء بضيائها وتظلم بظلامها ، فقد فارقت الرجل منذ سبع سنين فأنستنى الأيام صورتهُ ولم يبق فى ذاكرتى منها إلا ذلك الضياء اللامع ضياء الفضيلة والشرف الذى كان يتلألأ فوقها تلألؤ نور الشمس فوق صفحتها فلما رأيته الآن ولم أر أمام عينى تلك الغُلالة البيضاء من الضياء خيل إلى انى أرى صورة غير الصورة الماضية ورجلا غير الذى أعرفه من قبل

لم أر أمامى ذلك الفتى الجميل الوضّاح الذى كان كل منبت شعرة فى وجهه فماً ضاحكا تموج فيه ابتسامة لامعة بل رأيت مكانه رجلا شقياً منكوباً قد لبس الهرَم قبل أوانه وأوفى على الستين قبل أن يبلغ الثلاثين فاسترخي حاجباه وثقلت أجفانه وجمدت نظراته وتهدّل عارضاه وتجعّد جبينه واستشرف [٢] عاتقاهُ وهوى رأسه بينهما هُوِيّةً بين عاتقى الأحدب فكانت أول كلمة قلتها له لقد تغير فيك كل شيء يا صديقى حتي صورتك ، وكأنما ألمّ بما

---

(١) المرايا جمع مرآة

(٢) استشرف الشيء ارتفع

فى نفسى وعلم انى قد علمت من أمره كل شيء، فأطرق برأسه اطراق من يرى أن باطن الأرض خير لهُ من ظاهرها ولم يقل شيئاً، فدنوتُ منه حتى وضعت يدى على عاتقه وقلت له

والله ما أدرى ماذا أقول لك! أأعظك، وقد كنت واعظى بالأمس ونجم هداى الذى أستنير به فى ظلمات حياتى، أم أدلك على ما أوجب الله عليك فى نفسك وفى أهلك ولا أعرف شيئاً أنت تجهله ولا تصل يدى إلى شاردة تقصر يدك عن نيلها، أم استرحمك لأطفالك الضعفاء وزوجتك البائسة المسكينة التى لا عضد لها فى الحياة ولا معين سواك وأنت صاحب القلب الرحيم الذى طالما خفق رحمة بالبعداء، فأحرى ان يخفق رحمة بالأقرباء

ان هذه الحياة التى تحياها ياسيدى انما يلجأ اليها الهمل العاطلون الذين لا يصلحون لعمل من الأعمال ليتواروْا فيها عن أعين الناس حياءً وخجلا حتي يأتيهم الموت فيخلصهم من عارهم وشقائهم وما أنت بواحد منهم

انك تمشي يا سيدى فى طريق القبر وما أنت بناقم على الدنيا ولا متبرّم بها (١) فما رغبتك فى الخروج منها خروج اليائس المنتحر؟

---

(١) تبرم بالامر سئمه وضجر منه

عذرتك لو أن ما ربحت فى حياتك الثانية يقوم لديك مقام ما خسرت من حياتك الاولى ، ولكنك تعلم انك كنت غنياً فاصبحت فقيراً ، وصحيحاً فاصبحت سقيماً ، وشريفاً فاصبحت وضيعاً ، فان كنت ترى بعد ذلك انك سعيد فقد خلت رُقعة الأرض من الأشقياء

ان كان كل ما يعنيك من حياتك هذه أن تطلب فيها الموت فاطلبه فى جرعة سم تشربها دفعة واحدة فذلك خير لك من هذا الموت المتقطع الذى يكثر فيها عذابك وألمك ، وتعظم فيه آثامك وجرائمك ، وما يعاقبك الله على الأخرى بأكثر مما يعاقبك على الاولى

حسبُنا يا صديقى من الشقاء فى هذه الحياة ما يأتينا به القدر فلا نضمّ اليه شقاءً جديداً نجلبهُ بأنفسنا لأنفسنا فهات يدك وعاهدنى على أن تكون لى منذ اليوم كما كنت لى بالأمس فقد كنا سعداء قبل أن نفترق ثم افترقنا فشقينا ، وها نحن قد التقينا فلنعش فى ظلال الفضيلة والشرف سعداء كما كنا

ثم مددت يدى اليهِ فراعني أنهُ لم يحرّك يده فقلت له مالك لا تمد يدك الىّ ؟ فاستعبر باكياً وقال لأنى لا أحب أن أكون كاذباً ولا حانثاً ، قلت وما يمنعك من الوفاء ؟ قال يمنعنى منه اني رجل شقى لا حظ لى فى سعادة السعداء ، قلت قد استطعت بالأمس

أن تكون شقياً فلمَ لاتستطيع اليوم أن تكون سعيداً ، قال لان السعادة سماء والشقاء أرض والهبوط الى الأرض أسهل من الصعود الى السماء ، وقد زلّتْ قدمي عن رأس الهوة فلا حيلة لي في الاستمساك حتى أبلغ قرارتها ، وشربت أول جرعة من جرعات كأس الحياة المريرة فلا بد لي أن أشربها حتى ثمالتها ، ولا شيء يقف في سبيلي إلا شيء واحد فقط ، وهو أن لا أكون قد شربت الكأس الأولى قبل اليوم ، قلت ليس بينك وبين النزوع الا عزمة صادقة تعزمها فاذا أنت من الناجين ، قال ان العزيمة أثر من آثار الارادة وقد أصبحتُ رجلاً مغلوباً على أمري لا إرادة لي ولا اختيار ، فدعني ياصديقي والقضاء يصنع بي ما يشاء وابك على صديقك القديم منذ اليوم ان كنت لاترى بأساً في البكاء على الساقطين المذنبين .

ثم انفجر باكيا بصوت عال وتركني في مكاني دون أن يحييني بكلمة واحدة وخرج هائما على وجهه لاأعلم أين ذهب ، فانصرفت لشأني وبين جنبي من الهم والكمد ما الله به عليم

*
* *

لم يستطع رئيس الديوان أن يحامل نديمه بالامس زمناطويلا فأقصاه عن مجلسه استثقالا له ، ثم عزله من وظيفته استنكاراً لعمله ، ولم تذرف عينه دمعة واحدة على منظر صريعه الساقط

بين يديه ، ولم يستطع مالك البيت الجديد أن يمهل فيه مالكه القديم أكثر من بضعة شهور ثم طرده منه فالجأ هو وزوجته وولداه الى غرفة حقيرة فى بيت قديم فى زقاق مهجور فأصبحت لا أراه بعد ذلك الا ذاهباً الى الحانة أو عائداً منها ، فان رأيته ذاهباً توارى عن عينى حياء وخجلا وان رأيتــه عائداً دنوت منه فمسحت عن وجهه مالصق به من التراب أو عن جبينه ما سال منه من الدم ثم قدته الى بيته

وهكذا ما زالت الايام والاعوام تأخذ من جسم الرجل ومن عقله حتى أصبح من يراه يرى ظلا من الظلال المتنقلة ، أو حلما من الاحلام السارية ، يمشى فى طريقه مشية الذاهل المشدوه لا يكاد يشعر بشىء مما حوله ، ولا يتقى ما يعترض سبيله حتى يدانيه ، ويقف حيناً بعد حين فيـدور بعينيه حول نفسه كأنمـا يفتش عن شىء أضاعه وليس فى يده شىء يضيع ، أو يقلب نظره فى أثوابه وما فى أثوابه غير الخروق والرقاع ، وينظر الى كل وجه يقابله نظرة شزراء كانما يستقبل عدواً بغيضا وليس له عدو ولا صديق ، وربما تعلق بعض الصبيان بعاتقه فدفعهم عنه بيده دفعاً ليناً غير آبه ولا محتفل كما يدفع النائم المستغرق عن عاتقه يد موقظه ، حتى إذا خلا جوفه من الخمر وهدأت سورتها فى رأسه انحدر الى الحانة فلا يزال يشرب ويتزيد حتى يعود الى ما

كان عليه ولم يزل هذا شأنه حتى حدثت منذ بضعة شهور الحادثة الآتية

* * *

عجزت تلك الزوجة المسكينه أن تجد سبيلا الى القوت وأبكاها أن ترى ولدها وابنتها باكيين بين يديها تنطق دموعهما بما يصمت عنه لسانهما فلم تر لها بداً من أن تركب تلك السبيل التى يركبها كل مضطر عديم فأرسلتهما خادمين فى بعض البيوت يقتاتان فيها ويقيتانها فكانت لاتراهما بعد ذلك الا قليلا ولا ترى زوجها إلا فى الليلة التى تغفل عنه فيها عيون الشرطة وقلما تغفل عنه، فأصبحت وحيدة فى غرفتها لا مؤنس لها ولا معين إلا جارة عجوز تختلف اليها من حين الى حين فاذا فارقتها جارتها وخلت بنفسها ذكرت تلك الأيام السعيدة التى كانت تتقلب فيها فى اعطاف العيش الناعم والنعمة السابغة بين زوج محب كريم وأولاد كالكواكب الزهر حسناً وضياء ثم تذكر كيف أصبح السيد مسوداً والمخدوم خادماً والعزيز الكريم ذليلا مهانا وكيف انتثر ذلك العقد اللؤلئى المنظوم الذى كان حلية بديعة فى جيد الدهر ثم استحال بعد انتثاره الى حصيات ملقيات على سطح الغبراء تطؤها النعال وتدوسها الحوافر والأقدام فتبكى بكاء الواله فى إثر قوم ظاعنين حتى تتلف نفسها أو تكاد، على أنها ما أضمرت قط فى قلبها حقداً لذلك الانسان الذى كان سبباً فى شقاء ولديها ولا حدثتها

نفسها يوماً من الأيام بمغاضبته أو مفارقته لأنها امرأة شريفة والمرأة الشريفة لاتغدر بزوجها المنكوب، بل كانت تنظر اليه نظر الأم الحنون الى طفلها الصغير فترحمه وتعطف عليه وتسهر بجانبه إن كان مريضاً، وتأسو جراحه ان عاد جريحاً وربما طرده الخمار في بعض لياليه من حانته إن لم يجد معه ثمن الشراب فيعود الى بيته هائجاً ثائراً يطالب الشراب طلباً شديداً فلا تجد لها بداً من أن تعطيه نفقة طعامها أو تبتاع له من الخمر ماتسكن به نفسه رحمة به وابقاء على تلك البقية الباقية من عقله

وكأن الدهر لم يكفه ماوضع على عاتقها من الاثقال حتى أضاف اليها ثقلا جديداً فقد شعرت في يوم من أيامها بنسمة تحرك في أحشائها فعلمت أنها حامل وأنها ستأتي الى دار الشقاء بشقي جديد فهتفت صارخة : رحماك اللهم فقد امتلأت الكأس حتى ماتسع قطرة واحدة، وما زالت تكابد من آلام الحمل مايجب أن تكابده امرأة مريضة منكوبة حتى جاءت ساعة وضعها فلم يحضرها أحد الا جارتها العجوز فأعانها الله على أمرها فوضعت ثم مرضت بعد ذلك بحمى النفاس مرضاً شديداً فلم تجد طبيباً يتصدق عليها بعلاجها لان البلد الذي لا يستحيي اطباؤه ان يطالبوا أهل المريض بعد موته بأجرة علاجهم القاتل لا يمكن ان يوجد فيها طبيب محسن ولا متصدق فما زال الموت يدنو منها رويداً رويداً

حتى أدركتها رحمة الله فوافاها اجلها فى ساعة لا يوجد فيها بجانبها غير طفلتها الصغيرة عالقة بثديها

فى هذه الساعة دخل الرجل ثائرا مهتاجا يطلب الشراب ويفتش عن زوجته لتأتى له منه بما يريد فدار بعينيه فى انحاء الغرفة حتى رآها ممددة على حصيرها ورأي ابنتها تبكى بجانبها فظنها نائمة فدنا منها ودفع الطفلة بعيدا عنها وأخذ يحركها تحريكا شديدا فلم يشعر بحركة فرابه الامر وأحس برعدة تتمشى فى أعضائه حتى تملأ قلبه وبدأ صوابه يعود اليه شيئا فشيئا فاكب عليها يحدق فى وجهها تحديقا شديدا ويدنو منها رويدا رويدا حتى رأى شبح الموت ينظر اليه بعينيها الشاخصتين الجامدتين فتراجع خوفا وذعرا فوطئ فى تراجعه صدر ابنته فأنت أنة مؤلمة لم تحرك بعدها حركة واحدة، فصرخ صرخة شديدة وقال واشقاآه وخرج هائما على وجهه يعدو فى الطرق ويضرب رأسه بالعمد والجدران ويدفع كل ما يجد فى طريقه من انسان أو حيوان ويصيح ابنتى ! زوجتى ! هلموا الى ! أدركونى ! حتى أعيا فسقط على الأرض وأخذ يفحص التراب برجليه ويئن أنين الذبيح والناس من حوله يبكونه لا لأنهم يعرفونه بل لأنهم يرون فى وجهه آية شنائه

وكذلك كانت تلك اللحظة القصيرة التى استفاق فيها من ذهوله الطويل سببا فى ضياع ما بقي من عقله

وما هي الا ساعة أو ساعتان حتى أصبح مقيداً مغلولا فى قاعة من قاعات البيمارستان ، فوارحمتاه له ولزوجته الشهيدة ولطفلته الصريعة ولأولاده المشردين البؤساء ، ووا أسفا عليه وعليهم جميعاً حتى الموت



المرحوم الشيخ محمد عبده

الثريا

الاستاذ الحكيم فقيد الشرق

الشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية سابقا

ليست المصيبة التى تذهب بالدمع تذهب بالأمل ولكن المصيبة التى تذهب بالأمل تذهب بالحياة وما الحياة إلا كطائر حذر رنقت عيونه سنة من النوم فأدركه صياد حريص فسلبه حياته أصابت الأيام فى أخريابها عالم الشرق ونبراس الفلسفة ومنار الدين وحجة الفقه وامام الائمة مفتى الديار المصرية إثر داء نجيس لو أصاب الأيام لذهب بضيائها ولو أصاب البحار لغاض بمائها فاتفقت الأمة فى الحزن واختلفت في الصبر وكادت الشمس تحترق من الاسف والمهج تذوب من التلف حزناً على عالم أبى الدهر أن يبقي على حياته الطيبة لينهض بالشرق بعد ما كبلته العلماء (الجهلاء) بقيود لو كبل انسان بها الليل لمحا الله آية النهار

أخرجت الأرض ذلكم العالم كما تخرج النحل الشهد من بطونها فافتخرت الارض على السماء كما يفتخر الصباح على المساء

فعكف على الدرس فى أدوار متباينات وأيام مخالفات وكان فى إبان نشأته كالغصن الرطب فأثرت فيه الاعصار الازهرية وكادت تميل به فأنكر طريقة التدريس وعاف التمسك بالقديم فآض الى بلده وشغل بالزراعة بعد ما تصور ان الانسان لا يمكنه ان يجتاز بحر الظلمات بغير دليل ولا قبل له باجتيازه فى ذلك العهد ومازال كذلك حتى ألان قناته أبوه فعاد الى الازهر مكرهاً ففتح الله عليه وزال له الصعاب فاغترف من بحر المعقول ماشاء أن يغترف وقطف من روض المنقول ما شاء أن يقطف . وكان الازهر فى ذلك الحين يضم بين جوانبه عالماً نبغ فى الفلسفة وعرف بالمنطق وهو الشيخ (حسن الطويل) فلازمه الفقيد ملازمة اللفظ للمعنى وموافقة موافقة الروى للقصيدة وأخذ عنه ما جمله فى أيام قلائل يعبر عن أفكار الشيخ ومقاصده فكان بين أقرانه كالنجم يهتدى به فى غياهب الظنون ولما قصد مصر روح الفلسفة ولسان المنطق السيد جمال الدين الأفغانى مشى الاستاذ تحت سمائه المنيرة فصارت معارفه تنقل من صدر الى صدر ومواهبه تنقل من عقل إلى عقل حتى نبغ نبوغاً لا يشاركه فيه ناطق بالضاد فرأى جمال الدين أن روضته أزهرت وشجرته أثمرت فافتخر به وأدناه منه وقال وهو بين عالم الارواح وعالم الاجساد لمريديه انى خرجت من الدنيا وما ألفت كتاباً ولكن تركت لكم أثراً

يغنى عن جميع الكتب . وبعد ما برع المفتى تنفس صدر الثورة العرابية فألزمته الظروف ان يكون من اعوانها كما ألزمت فقيد الشعر وصاحب دولتى السيف والقلم محمود باشا سامى البارودى ولما سكنت ثائرة الثورة غضب عليه الامير فنفاه الى الشام فرأى مكاناً رحباً بين علمائها ومقاماً سامياً بين أمرائها فاغترفت العلماء من بحر فضله واستضاءت الامراء بنور علمه ولم يقعد به الحزن فى منفاه عن افادة الدين والادب فطفق يفسر الغامض من الخطب ويشرح الصعب من المتشابهات حتى أفاد من استفاد

ثم شخص الى مصر بعد عفو الخديوى عنه فشرع فى كتابة الوقائع الرسمية بلفظ جزل ومعنى أنيق وتراكيب كعقود الجمان فى عهد كانت اللغة فيه تتراوح بين الموت والحياة وكان الذى يفتح الله عليه بسجعة يعد نفسه من ائمة المنشئين والذى يفتح الله عليه بنوع بديعى يعد نفسه من ائمة النابغين فحل الشيخ عقدة الالسن وأطلق فى رياض المعانى طائر الفكر بعد ما هدم صروح البديعيين ولم ير الفقيد أهلا لمساعدته فى القيام بذلك العمل الجليل غير الاستاذ الفاضل الشيخ عبد الكريم سلمان فصارا ينتقدان على الجمل الركيكة والتراكيب الفاسدة ويرشدان الحكومة الى محجة الصواب وكانت الحكومة فى ذلك العهد تعمل برأيهما ثم عينته الحكومة قاضيا فأسس للعدل داراً ورفع للقانون منارا وما رأيت قاضيا يحكم

بالقانون على القانون سواه ولما أسكت الله نأمة المفسدين انتدبته الحكومة مفتيا للديار المصرية فأظهر فيها من الفتاوى العقلية الشرعية ما جعل علماء الدين ينظرون اليه بعين الحقد

وصل الى ذلك المقام الذى هو نهاية الرفعة فكثرت حساده فكان كل يوم فى جدال وكل آن فى نضال وكان الاستاذ رحمه الله يرى ان التمسك بالجديد ضرب من الظنون وكانت العلماء ترى أن التمسك بالجديد ضرب من الجنون فخذل العلم الجهل وأخذ له بناصره . ثم رأى أن يفسر كتاب الله تفسيراً معقولا لا يدع للتاريخ فيه مجالا ويوفق بين الحوادث الدينية والحوادث التاريخية ليزيل الشك عن فكار العامة والسآمة فأنكرت العلماء تفسيره كما ينكر الاعمى ضوء القمر ثم قام هانوتو وزير خارجية فرنسا وتحكك بالدين الاسلامى وطعن فيه طعنا كاد يذهب بحقيقته فتحفز الاستاذ كالأسد من مربضه وسدد قلمه فى صدر ذلك الوزير فثاب اليه رشده وبان له الخيط الابيض من الخيط الاسود كل ذلك والعلماء بين الولائم والوضائم يحرفون كتاب الله ويخلقون الاحاديث أملا فى إرضاء الجهلاء . ثم كتب صاحب الجامعة شيئاً من فلسفة ابن رشد فغابت عنه الحقيقة فأنكرها عليه الاستاذ وكشف النقاب عنها ثم قام يحارب البدع كالسجود لغير الله والتبرك بالأحجار وزيارة القبور والتمسك بما تساهل فيه السلف فقامت قيامة

الجهلاء ورموه بكل كلمة عوراء وهو لا يصده عن سبيل الله معارض ولا يوقفه عند حده كاشح ولما عجزت العلماء عن اثبات الله بالعقل ألف رسالة فى التوحيد فلو كان الله سبحانه وتعالى جسماً (تنزه عن ذلك) للمسته الأيدى ولو كان له حيز (تقدست أسماؤه) لرأته الأبصار . فلما قرأ الرسالة بعض حساده قال انى آمنت بالله ورسوله ولكن أخشى أن يكون المفتى خدعنى ببلاغته وقام وكتب الى المفتى كتابا يحمده فيه على خدمة الدين ويعتذر له عما فرط منه فقال الاستاذ الحكيم رحمه الله الحمد لله الذى أوجد من يحبني اذا علم ويكرهني اذا جهل . ذلكم هو الاستاذ الكريم الذى غاب عنا ظله ولم يغب ذكره . كان الفقيد رحمه الله يحن الى الفقير ويعذر الجهلاء ولا يخرجه الذم من الحلم الى الغضب . وكان فى المضاء كالسيف يقطع ولا يقطع ولقد مرت عليه أيام كسالفة الغراب الغدافى ومسائل كذنب الضب فتحمل من الأيام مالو تحمله أحد لصار هباء منثورا . وماذا يفعل الانسان اذ أوجدته الطبيعة بين عدوين كلما غاب عدو حضر عدو . وكان الاستاذ اذا حضر فى مجلس عقد الجلال السن القوم فلا تسمع غير قوله ولا ترى غير وجه منير وكان يميل الى المحاضرات والنكات

المختار من نثره

١

الدين الاسلامي أو الاسلام

هو الدين الذى جاء به محمد صلى الله عليه وسلم وعقله من وعاه عنه من صحابته ومن عاصرهم وجرى العمل عليه حيناً من الزمن بينهم بلا خلاف ولا اعتساف فى التأويل ولا ميل مع الشيع وانى مجمله فى هذا الباب مقتديا بالكتاب المجيد فى التفويض لذوى البصائر أن يفصلوه ، وما سندى فيما أقول الا الكتاب والسنة القويمة وهدى الراشدين :

جاء الدين الاسلامى بتوحيد الله تعالى فى ذاته وأفعاله وتنزيهه عن مشابهة المخلوقين . فأقام الأدلة على أن للكون خالقاً واحداً متصفاً بما دلت عليه آثار صنعه من الصفات العلية كالعلم والقدرة والارادة وغيرها ، وعلى أنه لا يشبهه شيء من خلقه وان لا نسبة بينه وبينهم الا أنه موجدهم وانهم له واليه راجعون : « قل هو الله أحد * الله الصمد * لم يلد * ولم يولد * ولم يكن له كفواً احد » وما ورد من ألفاظ الوجه واليدين والاستواء ونحوها له معان

عرفها العرب المخاطبون بالكتاب ولم يشتبهوا فى شىء منها ، وان ذاته وصفاته يستحيل عليها أن تبرز فى جسد أو روح أحد من العالمين وانما يختص سبحانه من شاء من عباده بما شاء من علم وسلطان على مايريد ان يسلطه عليه من الأعمال على سنة له فى ذلك سنها فى علمه الأزلى الذى لا يعتريه التبديل ولا يدنو منه التغيير وحظر على كل ذى عقل ان يعترف لأحد بشىء من ذلك الا ببرهان ينتهى فى مقدماته الى حكم الحس وما جاوره من البديهيات التى لا تنقص عنه فى الوضوح بل قد تعلوه كاستحالة الجمع بين النقيضين أو ارتفاعهما معاً أو وجوب ان الكل أعظم من الجزء مثلا ، وقضى على هؤلاء كغيرهم بأنهم لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً ، وغاية أمرهم انهم عباد مكرمون وأن ما يجريه على على أيديهم فانما هو باذن خاص و بتيسير خاص فى موضع خاص لحكمة خاصة ، ولا يعرف شأن الله فى شىء من هذا الا ببرهان كما تقدم

دل هذا الدين بمثل قول الكتاب «والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون» والشكر عند العرب معروف انه تصريف النعمة فيما كان الانعام بها لأجله . دل بمثل هذا على ان الله وهبنا من الحواس وغرز فينا من القوى ما نصرفه فى وجوهه بمحض

تلك الموهبة ، فكل شخص كاسب لعمله بنفسه لها أو عليها . واما ماتحير فيه مداركنا وتقصر دونه قوانا وتشعر فيه أنفسنا بسلطان يقهرها أو ناصر يمدها فيما أدركها العجز عنه ، على أنه فوق ماتعرف من القوى المسخرة لها وكان لابد من الخضوع له والرجوع اليه والاستعانة به ؛ فذلك انما يرد الى الله وحده . فلا يجوز أن تخشع إلا له ولا ان تطمئن الا اليه . وكذلك جمل شأنها فيما تخافه وترجوه مما تقبل عليه فى الحياة الآخرة لا يسوغ لها ان تلجأ الى أحد غير الله في قبول أعمالها من الطيبات ولا فى غفران أفاعيلها من السيئات ، فهو وحده مالك يوم الدين

اجتثت بذلك جذور الوثنيـة وما وليها مما لو اختلف عنها فى الصورة والشكل أو العبارة واللفظ لم يختلف عنها فى المعنى والحقيقة تبع هذا طهارة العقول من الأوهام الفاسدة التى تنفك عن تلك العقيدة الباطلة ، ثم تنزه النفوس عن الملكات السيئة التى كانت تلازم تلك الاوهام وتخلصت بتلك الطهارة من الاختلاف فى المعبودين وعليهم ، وارتفع شأن الانسان وسمت قيمته بما صار اليه من الكرامة بحيث أصبح لا يخضع لاحد إلا لخالق السموات والأرض وقاهر الناس أجمعين وأبيح لكل أحد بل فرض عليه ان يقول كما قال ابراهيم : « اني وجهت وجهيَ للذى فطر السموات والأرض حنيفاً وما انا من المشركين » وكما أمر رسول الله صلى

الله عليه وسلم أن يقول: « إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين. »

تجلت بذلك للانسان نفسه حرة كريمة وأطلقت إرادته من القيود التي كانت تعقدها بإرادة غيره سواء كانت ارادة بشرية ظن انها شعبة من الارادة الأهلية أو انها هي كارادة الرؤساء والمسيطرين أو ارادة موهومة اخترعها الخيال كما يظن في القبور والأحجار والأشجار والكواكب ونحوها، وافتكت عزيمته من أسر الوسائط والشفعاء والمتكهنة والعرفاء وزعماء السيطرة على الاسرار ومنتحلي حق الولاية على أعمال العبد فيما بينه وبين الله الزاعمين انهم واسطة النجاة وبأيديهم الاشقاء والاسعاد، وبالجملة فقد اعتقت روحه من العبودية للمحتالين والدجالين، صار الانسان بالتوحيد عبداً لله خاصة حراً من العبودية لكل ما سواه؛ فكان له من الحق ما للحر على الحر لا علىّ في الحق ولا وضيع، ولا سافل ولا رفيع، ولا تفاوت بين الناس الا بتفاوت أعمالهم، ولا تفاضل الا بتفاضلهم في عقولهم ومعارفهم، ولا يقربهم من الله الا طهارة العقل من دنس الوهم وخلوص العمل من العوج والرياء ثم بهذا خلصت أموال الكاسبين وتمحض الحق فيها للفقراء والمساكين والمصالح العامة، وكفت عنها أيدي العالة وأهل البطالة ممن كان يزعم الحق فيها بصفته ورتبته لا بعمله وخدمته.

طالب الاسلام بالعمل كل قادر عليه وقرر ان لكل نفس ما كسبت وعليها ما اكتسبت . « فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره » « وان ليس للانسان الا ماسعى » وأباح لكل أحد ان يتناول من الطيبات ما شاء أكلاً وشرباً ولباساً وزينة ولم يحظر عليه الا ما كان ضاراً بنفسه أو بمن يدخل فى ولايته أو ماتعدّى ضرره الى غيره ، وحدّد له فى ذلك الحدود العامة بما ينطبق على مصالح البشر كافة فكفل الاستقلال لكل شخص فى عمله واتسع المجال لتسابق الهمم فى السعى حتى لم يعد لها عقبة تتعثر بها ، اللهم الا حقاً محترما تصطدم به .

انحى الاسلام على التقليد وحمل عليه حملة لم يردها عنه القدر فبددت فيالقه المتغلبة على النفوس واقتلعت أصوله الراسخة فى المدارك ونسفت ما كان له من دعائم وأركان فى عقائد الأمم . صاح بالعقل صيحة أزعجته من سباته وهبت به من نومة طال عليه الغيب فيها . كلما نفذ اليه شعاع من نور الحق خلصت اليه هينمة من سدنة هيا كل الوهم : « نم فان الليل حالك والطريق وعرة والغاية بعيدة والراحلة كليلة والأزواد قليلة . » علا صوت الاسلام على وساوس الطغام وجهر بأن الانسان لم يخلق ليقاد بالزمام ولكنه فطر على ان يهتدى بالعلم والأعلام ، أعلام الكون ودلائل الحوادث وانما المعلمون منبهون ومرشدون والى طرق البحث هادون .

صرح فى وصف أهل الحق بانهم « الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه » فوصفهم بالتمييز بين ما يقال من غير فرق بين القائلين ليأخذوا بما عرفوا حسنه ويطرحوا ما لم يتبينوا صحته ونفعه، ومال على الرؤساء فانزلهم من مستو كانوا فيه يأمرون وينهون ووضعهم تحت أنظار مرؤسيهم يخبرونهم كما يشاؤن ويمتحنون بزاعمهم حسبما يحكمون ويقضون فيها بما يعلمون ويتيقنون لا ما يظنون ويتوهمون .

صرف القلوب عن التعلق بما كان عليه الآباء وما توارثه عنهم الابناء وسجل الحمق والسفاهة على الآخذين بأقوال السابقين ونبه على ان السبق فى الزمان ليس آية من آيات العرفان ولا مسميا لعقول على عقول ولا لأذهان على أذهان ، وانما السابق واللاحق فى التمييز والفطرة سيان ، بل للاحق من علم الاحوال الماضية واستعداده للنظر فيها والانتفاع بما وصل اليه من آثارها فى الكون ما لم يكن لمن تقدمه من أسلافه وآبائه . وقد يكون من تلك الآثار التى ينتفع بها أهل الجيل الحاضر ظهور العواقب السيئة لأعمال من سبقهم وطغيان الشر الذى وصل اليهم بما اقترفه سلفهم: «قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين » وان أبواب فضل الله لم تغلق دون طالب ورحمته التى وسعت كل شيء لن تضيق عن دائب .

عاب أرباب الأديان فى انتفائهم أثر آبائهم ووقوفهم عندما اختطته لهم سير أسلافهم وقولهم « بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا» «انا وجدنا آباءنا على أمة وانا على آثارهم مهتدون » فأطلق بهذا سلطان العقل من كل ما كان قيده وخلصه من كل تقليد كان استعبده ورده الى مملكته يقضى فيها بحكمه وحكمته مع الخضوع مع ذلك لله وحده والوقوف عند شريعته ولا حد للعمل فى منطقة حدودها ولا نهاية للنظر يمتد تحت بنودها .

بهذا وما سبقه تم للانسان بمقتضى دينه أمران عظيمان طالما حرم منهما وهما استقلال الارادة واستقلال الرأى والفكر وبهما كملت له انسانيته واستعد لأن يبلغ من السعادة ما هيأه الله له بحكم الفطرة التى فطر عليها ، وقد قال بعض حكماء الغربيين من متأخريهم ان نشأة المدنية فى أوروبا انما قامت على هذين الأصلين . فلم تنهض النفوس للعمل ولم تتحرك العقول للبحث والنظر الا بعد ان عرف العدد الكثير أنفسهم وان لهم حقاً فى تصريف اختيارهم وفى طلب الحقائق بعقولهم ولم يصل اليهم هذا النوع من العرفان الا فى الجيل السادس عشر من ميلاد المسيح . وقرر ذلك الحكيم انه شعاع سطع عليهم من آداب الاسلام ومعارف المحققين من أهله فى تلك الازمان .

رفع الاسلام بكتابه المنزل ما كان قد وضعه رؤساء الأديان

من الحجر على عقول المتدينين فى فهم الكتب السماوية استئثاراً
من أولئك الرؤساء بحق الفهم لانفسهم وضنابه على كل من لم يلبس
لباسهم ولم يسلك مسلكهم لنيل تلك الرتب المقدسة ففرضوا على
العامة أو أباحوا لهم ان يقرؤا قطعاً من تلك الكتب ، لكن على
شريطة ان لايفهموها ولاأن يطيلوا أنظارهم الى ماترمى اليه . ثم
غالوا في ذلك فحرموا انفسهم أيضاً مزية الفهم الا قليلا ورموا
عقولهم بالقصور عن ادراك ماجاء فى الشرائع والنبوات ووقفوا كما
وقفوا بالناس عند تلاوة الالفاظ تعبداً بالاصوات والحروف فذهبوا
بحكمة الارسال فجاء القرآن يلبسهم عار ما فعلوا فقال : « ومنهم
أميون لايعلمون الكتاب الا أمانىّ وإن هم الا يظنون » « مثل الذين
حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمر أسفاراً بئس مثل القوم
الذين كذبوا بآيات الله والله لايهدى القوم الظالمين » اما الامانى
ففسرت بالقرآآت والتلاوات اى لايعلمون منه الا أن يتلوه واذا
ظنوا انهم على شىء مما دعا اليه فهو عن غير علم بما أودعه وبلا برهان
على ما تخيلوه عقيدة وظنوه ديناً ، واذا عنّ لاحدهم ان يبين شيئاً
من أحكامه ومقاصده لشهوة دفعته الى ذلك جاء فيما يقول بما ليس
منه على بينة واعتسف فى التأويل وقال هذا من عند الله « فويل
للذين يكتبون الكتاب بأيهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا
به ثمناً قليلاً » اما الذين قال انهم لم يحملوا التوراة وهى بين أيديهم

بعد ما حملوها فهم الذين لم يعرفوا منها الا الالفاظ ولم تسم عقولهم الى درك ما أودعته من الشرائع والاحكام فعميت عليهم بذلك طرق الاهتداء بها وطمست عن اعينهم اعلام الهداية التى نصبت بانزالها فحق عليهم ذلك المثل الذى اظهر شأنهم فيما لا يليق بنفس بشرية ان تظهر به مثل الحمار الذى يحمل الكتب ولا يستفيد من حملها الا العناء والتعب وقصم الظهر وانبهار الانفس: وما اشنع شأن قوم انقلبت بهم الحال فما كان سبباً فى اسعادهم وهو التنزيل والشريعة أصبح سبباً فى شقائهم بالجهل والغباوة وبهذا التقريع ونحوه وبالدعوة العامة الى الفهم وتمحيص الالباب للتفقه واليقين مما هو منتشر فى القرآن العزيز .

فرض الاسلام على كل ذى دين أن يأخذ بحظه من علم ما أودع الله فى كتبه وما قرر من شرعه وجعل الناس في ذلك سواء بعد استيفاء الشرط باعداد ما لا بد منه للفهم وهو سهل المنال على الجمهور الاعظم من المتدينين لا تختص به طبقة من الطبقات ولا يحتكر مزيته وقت من الاوقات

جاء الاسلام والناس شيع فى الدين وان كانوا إلا قليلا فى جانب عن اليقين يتنابذون ويتلاعنون ويزعمون فى ذلك انهم بحبل الله مستمسكون فرقة وتخالف وشغب يظنونها فى سبيل الله اقوى سبب . انكر الاسلام ذلك كله وصرح تصريحا لا يحتمل الريبة

بان دين الله في جميع الازمان وعلى ألسن جميع الانبياء واحد. قال الله : « ان الدين عند الله الاسلام وما اختلف الذين أوتوا الكتاب الا من بعد ماجاءهم العلم بغياً بينهم » «ما كان ابراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين» «شرع لكم من الدين ماوصى به نوحاً والذى أوحينا اليك وماوصينا به ابراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه كبر على المشركين ماتدعوهم اليه» « قل يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لانعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً ارباباً من دون الله فان تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون» وكثير من ذلك يطول ايراده فى هذه الوريقات . والآيات الكريمة التى تعيب على اهل الدين ما نزعوا اليه من الاختلاف والمشاقة مع ظهور الحجة واستقامة المحجة لهم فى علم ما اختلفوا فيه معروفة لكل من قرأ القرآن وتلاه حق تلاوته . نص الكتاب على ان دين الله فى جميع الازمان هو إفراده بالربوبية والاستسلام له وحده بالعبودية وطاعته فيما امر به ونهى عنه مما هو مصلحة للبشر وعماد لسعادتهم فى الدنيا والآخرة، وقد ضمنه كتبه التى انزلها على المصطفين من رسله ودعا العقول الى فهمه منه والعزائم الى العمل به ، وان هذا المعنى من الدين هو أصل الذى يرجع اليه عند هبوب ريح التخالف وهو الميزان الذى توزن به الاقوال عند التناصف وان اللجاج

والمراء في الجدل فراق مع الدين وبعد عن سنته ، ومتى روعيت حكمته ولوحظ جانب العناية الالهية في الانعام على البشر به ذهب الخلاف وتراجعت القلوب الى هداها وسار الكافة في مراشدهم اخوانا بالحق مستمسكين وعلى نصرته متعاونين .

اما صور العبادات وضروب الاحتفالات مما اختلفت فيه الاديان الصحيحة سابقها مع لاحقها واختلاف الاحكام متقدمها مع متأخرها فمصدره رحمة الله ورأفته في إيتاء كل امة وكل زمان ماعلم فيه الخير للأمة والملاءمة للزمان وكما جرت سنته وهو رب العالمين بالتدريج في تربية الاشخاص من خارج من بطن امه لا يعلم شيئا الى راشد في عقله كامل في نشأته يمزق الحجب بفكره ويواصل اسرار الكون ، بنظره كذلك لم تختلف سنته ولم يضطرب هديه في تربية الامم . فلم يكن من شأن الانسان في جملته ونوعه ان يكون في مرتبة واحدة من العلم وقبول الخطاب من يوم خلقه الله الى يوم يبلغ به من الكمال منتهاه ، بل سبق القضاء بأن يكون شأن جملته في النمو قائما على ماقررته الفطرية الالهية في شأن أفراده وهذا من البديهيات التي لايصح الاختلاف فيها وان اختلف أهل النظر في بيان ماتفرع منه في علوم وضعت للبحث في الاجتماع البشرى خاصة فلا نطيل الكلام فيه هنا .

جاءت أديان والناس من فهم مصالحهم العامة بل والخاصة في

طور أشبه بطور الطفولية للناشىء الحديث العهد بالوجود لا يألف منه الا ما وقع تحت حسه ويصعب عليه ان يضع الميزان بين يومه وأمسه وان يتناول بذهنه من المعانى ما لا يقرب من لمسه ولم ينفث في روعه من الوجدان الباطن ما يعطفه على غيره من عشيره او ابن جنسه فهو من الحرص على ما يقيم بناء شخصه فى هم شاغل عما يأتى اليه فيما يصله بغيره اللهم الا يداً تصل الى فمه بطعام او تسنده فى قعود او قيام فلم يكن من حكمة تلك الاديان ان تخاطب الناس بما يلطف فى الوجدان او يرقى اليه بسلم البرهان بل كان من عظيم الرحمة ان تسير بالاقوام وهم عيال الله سير الوالد مع ولده فى سذاجة السن لا يأتيه إلا من قبل ما يحسه بسمعه أو ببصره ، فأخذتهم بالأوامر الصادعة والزواجر الرادعة وطالبتهم بالطاعة وحملتهم فيها على مبلغ الاستطاعة ، كلفتهم بمعقول المعني جلى الغاية وان لم يفهموا معناه ولم تصل مداركهم الى مرماه وجاءتهم من الآيات بما تطرف له عيونهم وتنفعل به مشاعرهم ، وفرضت عليهم من العبادات ما يليق بحالهم هذه.

ثم مضت على ذلك أزمان علت فيها الاقوام وسقطت وارتفعت وانحطت ، وجربت وكسبت ، وتخالفت واتفقت ، وذاقت من الأيام آلاما ، وتقلبت فى السعادة والشقاء أياما وأياما ، ووجدت الانفس بنفث الحوادث ولقن الكوارث شعورا أدق من الحس

وأدخل فى الوجدان لا يرتفع فى الجملة عما تشعر به قلوب النساء أو تذهب معه نزعات الغلمان ، فجاء دين يخاطب العواطف ويناجي المراحم ويستعطف الاهواء ويحادث خطرات القلوب ، فشرع للناس من شرائع الزهادة ما يصرفهم عن الدنيا بجملتها ويوجه وجوههم نحو الملكوت الاعلى ، ويقتضى من صاحب الحق ان لا يطالب به ولو بحق ، ويغلق أبواب السماء فى وجوه الأغنياء وما يحو نحو ذلك مما هو معروف . وسن للناس سنناً فى عبادة الله تتفق مع ما كانوا عليه وما دعاهم اليه ، فلاقي من تعلق النفوس بدعوته ما أصلح من فاسدها وداوى من أمراضها . ثم لم يمض عليه بضعة أجيال حتى ضعفت العزائم البشرية عن احتماله ، وضاقت الذرائع عن الوقوف عند حدوده والأخذ بأقواله ، ووقر فى الظنون أن اتباع وصاياه ضرب من المحال فهب القائمون عليه أنفسهم لمنافسة الملوك فى السلطان ومزاحمة أهل الترف فى جمع الاموال وانحرف الجمهور الأعظم منهم عن جادته بالتأويل ، وأضافوا عليه ما شاء الهوى من الأباطيل . هذا كان شأنهم فى السجايا والأعمال ، نسوا طهارته وباعوا نزاهته أما فى العقائد فتفرقوا شيعاً وأحدثوا بدعاً ولم يستمسكوا من أصوله الا بما ظنوه من أشد أركانها وتوهموه من أقوى دعائمها وهو حرمان العقول من النظر فيه بل وفى غيره من دقائق الاكوان والخطر على الافكار ان

تنفذ الى شيء من سرائر الخلقة فصرحوا بان لا وفاق بين الدين والعقل وأن الدين من أشد أعداء العلم ولم يكف الذاهب الى ذلك ان يأخذ به نفسه بل جد في حمل الناس على مذهبه بكل ما يملك من حول وقوة وأفضى الغلو فى ذلك بالانفس الى نزعة كانت أشأم النزعات على العالم الانسانى وهى نزعة الحرب بين أهل الدين للالزام ببعض قضايا الدين فتقوض الأصل وتخرّمت العلائق بين الأهل وحلت القطيعة محل التراحم والتخاصم مكان التعاون والحرب محل السلام، وكان الناس على ذلك الى أن جاء الاسلام .

كان سن الاجتماع البشرى قد بلغ بالانسان أشده وأعدته الحوادث الماضية الى رشده فجاء الاسلام يخاطب العقل ويستصرخ الفهم واللب ويشركه مع العواطف والاحساس فى إرشاد الانسان الى سعادته الدنيوية والاخروية وبين للناس ما اختلفوا فيه وكشف لهم عن وجه ما اختصموه عليه وبرهن على ان دين الله فى جميع الاجيال واحد ومشيئته فى اصلاح شؤونهم وتطهير قلوبهم واحدة، وان رسم العبادة على الاشباح انما هو لتجديد الذكرى فى الارواح، وان الله لا ينظر الى الصور ولكن ينظر الى القلوب. وطالب المكلف برعاية جسده كما طالبه باصلاح سره . ففرض نظافة الظاهر كما أوجب طهارة الباطن وعد كلا الأمرين طهراً مطلوباً . وجعل روح العبادة الاخلاص وان ما فرض من الاعمال انما هو لما أوجبه

من التطبع بصالح الملكات : « ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر »
« ان الانسان خلق هلوعا اذا مسه الشر جزوعا واذا مسه الخير
منوعا الا المصلين » ورفع الغني الشاكر الى مرتبة الفقير الصابر
بل ربما فضله عليه . وعامل الانسان فى مواعظه معاملة الناصح
الهادي للرجل الرشيد فدعاه الى استعمال جميع قواه الظاهرة والباطنة
وصرح بما لا يقبل التأويل ان فى ذلك رضا الله وشكر نعمته وان
الدنيا مزرعة الآخرة ولا وصول الى خير العقبى الا بالسعي فى
صلاح الدنيا .

التفت الى أهل العناد فقال لهم : « قل هاتو برهانكم ان
كنتم صادقين » وعنف النازعين الى الخلاف والشقاق على مازعزعوا
من اصول اليقين » ونص على أن التفرق بغي وخروج عن سبيل
الحق المبين . ولم يقف فى ذلك عند حد الموعظة بالكلام والنصيحة
بالبيان ، بل شرع شريعة الوفاق وقررها فى العمل فاباح للمسلم ان
يتزوج من اهل الكتاب وسوغ مؤاكلتهم وأوصى ان تكون مجادلتهم
بالتى هى احسن . ومن المعلوم ان المحاسنة هي رسول المحبة وعقد
الالفة والمصاهرة انما تكون بعد التحاب بين اهل الزوجين والارتباط
بينهما بروابط الائتلاف . ثم اخذ العهد على المسلمين ان يدافعوا
عمن يدخل فى ذمتهم من غيرهم كما يدافعون عن انفسهم . ونص
على ان لهم مالنا وعليهم ما علينا ولم يفرض عليهم جزاء ذلك الا

زهيداً يقدمونه من مالهم ، ونهى بعد ذلك عن كل اكراه في الدين وطيب قلوب المؤمنين فى قوله : «ياأيها الذين آمنوا عليكم انفسكم لا يضركم من ضل اذا اهتديتم» فعليهم الدعوة الى الخير بالتى هى احسن وليس لهم و لاعليهم ان يستعملوا اى ضرب من ضروب القوة في الحمل على الأسلام فان نوره جدير ان يخترق القلوب وليست الآية في الامر بالمعروف بين المسلمين فانه لا اهتداء الا بعد القيام به ولو اريد ذلك لكان التعبير « على كل واحد منكم بنفسه الا » عليكم انفسكم كما هو ظاهر لكل عربى : كل ذلك ليرشد الناس الى ان الله لم يشرع لهم الدين ليتفرقوا فيه ولكن ليهديهم الى الخير فى جميع نواحيه .

رفع الاسلام كل امتياز بين الأجناس البشرية وقرر لكل فطرة شرف النسبة الى الله فى الخلقة وشرف اندراجها فى النوع الانسانى بالجنس والفصل والخاصة وشرف استعدادها بذلك لبلوغ أعلى درجات الكمال الذي أعده الله لنوعها على خلاف مازعمه المنتحلون من الاختصاص بمزايا حرم منها غيرهم وتسجيل الخسة على أصناف زعموا أنها لن تبلغ من الشأن ان تلحق غبارهم — فأماتوا بذلك الارواح فى معظم الامم وصيروا أكثر الشعوب هياكل وأشباحاً .

هذه عبادات الاسلام على ما فى الكتاب وصحيح السنة تتفق

على ما يليق بجلال الله وسمو وجوده عن الاشباه وتلائم مع المعروف عند العقول السليمه فالصلاة ركوع وسجود وحركه وسكون ودعاء وتسبيح وتعظيم وكلها تصدر عند ذلك الشعور لسلطان الاثر الالهى الذى يغمر القوة البشريه ويستغرق الحول فتخشع له القلوب وتستخذى له النفوس وليس فيها شيء يعلو على متناول العقل الا نحو تحديد عدد الركعات أو رمى الجمرات على أنه مما يسهل التسليم فيه لحكمة العليم الخبير وليس فيه من ظاهر العبث واستحالة المعنى مما يخل بالاصول التى وضعها الله للعقل في الفهم والتفكير . اما الصوم وحرمان يعظم به أمر الله فى النفس وتعرف به مقادير النعم عند فقدها ومكانة الاحسان الالهي في التفضل بها «كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون» اما اعمال الحج فتذكير للانسان باوليات حاجاته وتعهد له بتمثيل المساواة بين افراده ولو فى العمر مره يرتفع فيها الامتياز بين الغنى والفقير والصعلوك والأمير ويظهر الجميع فى معرض واحد عراة الابدان متجردين عن آثار الصنعة وجدت بينهم العبوديه لله رب العالمين كل ذلك مع استيفائهم فى الطواف والسعى والمواقف . ولمس الحجر ذكرى ابراهيم عليه السلام وهو أبو الدين وهو الذى سماهم المسلمين واستقرار تعيينهم على ان لا شيء من تلك البقايا الشريفة يضر أو ينفع ، وشعار هذا الاذعان الكريم فى كل عمل «الله اكبر»

اين هذا كله مما تجد فى عبادات اقوام آخرين يضل فيها العقل ويتعذر معها خلوص السر للتنزيه والتوحيد .... كشف الاسلام عن العقل غمة من الوهم فيما يعرض من حوادث الكون الكبير (العالم) والكون الصغير (الانسان) فقرر ان آيات الله الكبرى فى صنع العالم انما يجرى امرها على السنن الالهية التي قدرها الله فى علمه الازلى لا يغيرها شيء من الطوارىء الجزئية غير انه لا يجوز ان يغفل شان الله فيها بل ينبغي ان يحى ذكره عند رؤيتها فقد جاء على لسان النبي صلى الله عليه وسلم أن الشمس والقمر آيتان فى آيات الله لا يخفان لموت أحد ولا لحياته «فاذا رايتم ذلك فأذكروا الله» وفيه التصريح بان جميع آيات الكون تجرى على نظام واحد لا يقضى فيه الا العناية الازلية علي السنن التى أقامته عليها . ثم اماط اللثام عن حال الانسان فى النعم التى يتمتع بها الاشخاص أو الأمم والمصائب التى يرزأون بها ففصل بين الامريين فصلا لا مجال معه للخلط بينهما . فاما النعم التى يمتع الله بها بعض الاشخاص فى هذه الحياة والرزايا التى يرزأ بها فى نفسه فكثير منها كالثروة والجاه والقوة والبنين أو الفقر والضعة والضعف والفقد قد لا يكون كاسبها اوجالبها ما عليه الشخص فى سيرته من استقامة وعوج او طاعة وعصيان. وكثيرا ما أمهل الله بعض الطغاة البغاة أو الفجرة الفسقة وترك لهم متاع الحياة الدنيا انظارا لهم حتى يتلقاهم ما اعد لهم من العذاب المقيم

فى الحياه الأخرى . وكثيرا ماامتحن الله الصالحين من عباده
وأثنى عليهم في الاستسلام لحكمه وهم الذين اذا أصابتهم مصيبة
عبروا عن خلاصهم فى التسليم بقولهم « انا لله وانا اليه راجعون »
فلا غضب زيد ولا رضا عمرو ولا اخلاص سريره ولا فساد عمل
مما يكون له دخل فى هذه الرزايا ولا فى تلك النعم الخاصة اللهم
الا فيما بالعمل ارتباط المسبب بالمسبب على جارى العاده كارتباط
الفقر بالاسراف والذل بالجبن وضياع السلطان بالظلم وكارتباط
الثروة بحسن التدبير فى الاغلب والمكانة عند الناس بالسعى فى
مصالحهم على الاكثر ومما يشبه ذلك مما هو مبين فى علم آخر
اما شأن الامم فليس على ذلك . فان الروح الذى اودعه الله جميع
شرائعه الالهية من تصحيح الفكر وتسديد النظر وتأديب
الاهواء وتحديد مطامح الشهوات والدخول الى كل أمر من
بابه وطلب كل رغيبة من اسبابها وحفظ الامانه واستشمار الاخوة
والتعاون على البر والتناصح فى الخير والشر وغير ذلك من أصول
الفضائل ـ ذلك الروح هو مصدر حياة الامم ومشرق سعادتها
فى هذة الدنيا قبل الآخرة « من يرد ثواب الدنيا نؤته منها » ولن
يسلب عنها نعمته مادام هذا الروح فيها يزيد الله النعم بقوته
وينقصها بضعفه ، حتى اذا فارقها فذهبت السعادة على أثره ، وتبعته
راحة الى مقره واستبدل الله عزة القوم بالذل وكثرهم بالقل

ونعيهم بالشقاء وراحتهم بالعناء ، وسلط عليهم الظالمين أو العادلين فأخذهم بهم وهم فى غفلة ساهون ! « واذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليه القول فدمرناها تدميرا » امرناهم بالحق ففسقوا عنه الى الباطل ثم لا ينفعهم الانين ولا يجريهم البكاء ولا يفديهم ما بقى من صور الاعمال ولا يستجاب منهم الدعاء ولا كاشف لما نزل بهم الا أن يلجؤا الى ذلك الروح الاكرم فيستنزلوه فى سماء الرحمة برسل الفكر والذكر والصبر والشكر : « ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » « سنة فى الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا » وما أجل ماقاله العباس بن عبد المطلب فى استسقائه . « اللهم أنه لم ينزل بلاء الا بذنب ولم يرفع الا بتوبة » على هذه السنن جرى سلف الامة ؛ فبينما كان المسلم يرفع روحه بهذه العقائد السامية ويأخذ نفسه بما يتبعها من الاعمال الجليلة كان غيره يظن انه يزلزل الارض بدعائه ويشق الفلك ببكائه وهو ولع باهوائه ماض فى غلوائه وما يغنى عنه ظنه من الحق شيئا

حث القرآن على التعليم وارشاد العامة والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وأولئك هم المفلحون . ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ماجاءهم البينات واولئك لهم عذاب عظيم ، يوم تبيض وجوه وتسود وجوه . فاما الذين أسودت

وجوههم اكفرتم بعد أيمانكم فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون . وأما الذين ابيضت وجوههم ففى رحمة الله هم فيها والله مافى السموات وما فى الارض والى الله ترجع الامور »

ثم بعد هذا الوعيد الذى يزعج المفرطين ويحق به كلمة العذاب على المختلفين والمقصرين أبرز حال الآمرين بالمعروف الناهين عن المنكر فى أجل مظهر يمكن ان تظهر فيه حال أمة فقال : « كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله » فقدم ذكر الامر بالمعروف والنهى عن المنكر على الايمان فى هذه الآية مع أن الايمان هو الاصل الذى تقدم عليه اعمال البر والدوحة التى تتفرع عنها افنان الخير تشريفاً لتلك الفريضة واعلاء لمنزلتها بين الفرائض بل تنبيهاً على انها حفاظ الايمان وملاك امره . ثم شد بالانكار على قوم اغفلوها واهل دين اهملوها فقال . « لعن الله الذين كفروا من بنى اسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون . كانوا لايتناهون عن المنكر فعلوه ، لبئس ما كانوا يفعلون » فقذف عليهم اللعنة وهى اشد ماعنون الله به مقته وغضبه

فرض الاسلام للفقراء فى اموال الاغنياء حقاً معلوماً يفيض به الآخرون على الاولين سداً لحاجة المعدم وتفريجاً لكربة الغارم وتحريراً لرقاب المستعبدين وتيسيراً لابناء السبيل ولم يحث شىء

حثه على الانفاق من الاموال فى سبيل الخير وكثيرا ما جعله عنوان الايمان ودليل الاهتداء الى الصراط المستقيم . فاستل بذلك ضغائن اهل الفاقة ومحص صدورهم من الاحقاد وعلى من فضلهم الله عليهم فى الرزق . وأشعر قلوب اولئك محبة هؤلاء وساق الرحمة فى نفوس هؤلاء على اولئك البائسين فاستقرت بذلك الطمأنينة فى نفوس الناس اجمعين : واى دواء لأمراض الاجتماع انجع من هذا :
« ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم . »

اغلق الاسلام بابى الشر وسد ينبوعى فساد العقل والمال بتحريمه الخمر والمقامرة والربا تحريما باتا لاهوادة فيه . لم يدع الاسلام بعد ما قررنا اصلا من اصول الفضائل الا اتى عليه ولا اماما من امهات الصالحات الا احياها ولا قاعدة من قواعد النظام الا قررها فاستجمع للانسان عند بلوغ رشده كما ذكرنا حرية الفكر واستقلال العقل فى النظر وما به صلاح السجايا واستقامة الطبع وما فيه انهاض العزائم الى العمل وسوقها فى سبل السعي . ومن يتل القرآن حق تلاوته يجد فيه من ذلك كنزا لا ينفد وذخيرة لا تفنى . هل بعد الرشد وصاية وبعد اكتمال العقل ولاية ؟ كلا ، قد تبين الرشد من الغى ولم يبق الا اتباع الهدى والانتفاع بما ساقته ايدى الرحمة لبلوغ الغاية من السعادتين . لهذا ختمت النبوات بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم وانتهت الرسالات برسالته كما صرح بذلك الكتاب وايدته

السنة الصحيحة وبرهنت عليه خيبة مدعيها من بعده واطمئنان العالم وصل اليه العلم الى ان لا سبيل بعد لقبول دعوة يزعم القائم بها انه يحدث عن الله بشرع او يصدع عن وحية بأمر ، هكذا يصدق نبأ الغيب ؟ «ما كان محمد أبا احد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين وكان الله بكل شيء عليما »

البخيل



للكاتب الاجتماعي الكبير عباس افندى محمود العقاد

كان فى من أعرف من الناس رجل لايعرف الناس أبخل منه .كان هذا الرجل اذا اشتهت نفسه الشيء مما تشتهيه الأنفس من طيبات المأكل والملبس أخرج القرش من كيسه فنظر اليه

نظرة العاشق المدنف الى معشوقه ثم رده الى الكيس وقال:
هذا القرش لو أضيف اليه تسعة وتسعون مثله لصار جنيها، والجنيه بعد الجنيه يجلب الثروة العريضة ويجمع المال الحير [1] وهبني تهاونت بانفاقه اليوم وسمحت نفسي به فلا آمن ان تسخو بغيره غدا. فانما القروش كلها واحدة في القيمة وليس قرش بأغلى من قرش والشهوات حاضرة في كل وقت، فكأنني انفقت اليوم بانفاقي هـذا القرش جميع ما سوف أملكه وأدخره من المال. وفتحت على نفسي باب الفاقة الدائمة والعوز المستمر، طاوعها لشهوة حمقاء إذ أناوقتها [2] الآن ماتت واسترحت منها وان آتيتها على ما تدعوني اليه كل ساعة كنت كمن يرمي الوقود في النار ليخمدها، وكنت كمن يشتهي الفقر ويتمنى الاعدام وتلك والله الحماقة بعينها

وكان اذا تم عنده الجنيه على هذه الكيفية أسقطه في صندوق ثقب له ثقبا في غطائه ولم يجعل له مفتاحا لئلا يتعود الفتح والاقفال ويجرأ على ذلك الذخر بالكشف والابتذال وخوفا من أن تراوده نفسه لفرط شغفه بالذهب على مس جنيه من تلك الجنيهات فيجر المس الى التحريك ويجر التحريك الى الأخذ فالاخراج فالصرف وهناك الطامة العظمى والداهية الشؤمى، ويقول ان سلما أنت

(١) مال احير أي كثير جدا
(٢) ردغتها

واقف على قمته حرى أن تصل يوما الى أسفله . ومالك ان لا تغلق الشر من بابه وتر تقع الفتق من أوله وتتلافى الأمر فى بدايته؟ بل أن تتعذر عليك نهايته . وكان يرى الفقر من بعيد فيظنه أدنى اليه من حبل الوريد . فالفقر عنده محيط بكل مكان ، شامل لكل زمان ، ومادام فى الارض درهم فهو فقير اليه ومادام فقير فالاطمئنان محال عليه ؛ ولقد ألفنا أن نسمى البخلاء عبيد الذهب وكان الاصوب ان نسميهم عبيد الفقر لانهم يضحون الذهب للفقر . وهم يحبون الفقر ويخشونه . فيعيشون عيشة المعدمين والبؤساء ، مع تمكنهم من الثراة ويخشونه فيتقونه، وعندهم له من كل دينار وقاء

فاذا سقط الجنيه فى ذلك الصندوق . . لا بل فى تلك الحفرة كانت تلك السقطة آخر عهده بالهواء والنور، آخر عهده بالهبات والبيوع، وآخر عهده بالأنامل والكفوف، وهوى من ذلك الصندوق فى منجم كالمنجم الذي كان فيه . وشتان المهد واللحد . ومات موته لا تنشر منها الا يد الوارث ان شاء الله . وقد فعل

ولو أتيح لتلك الجنيهات أن تحادث فى ذلك السجن المطبق عن ماضيها كما يفعل السجناء اذن لسمعت من أحاديثها العجب العجاب . بين جنيه رحالة جراب ، يتنقل بك من السويد الى الكاب وينبؤك عن الاعاجم تارة وتارة عن الاعراب . وجنيه فرار غدار ما سلم بالليل الا ودع بالنهار ؛ وجنيه نشأ فى الحانات ، والمواخير

فاسترق رنته من رنات الكؤوس والقوارير . وجنيه عاشر الابرياء والجناة ، ورافق النساك والغواة وجاور المعوزين والسراة ومر بالمساكين والعتاة . وطفر من الاصدقاء الى الاصدقاء ومن العداة الى العداة وكلها تشهد شهادة لا بهتان فيها أن مالكها الاخير أقدر من قنص الدينار ، من الابرار والفجار ، وأخبر من صاد النضار ، من الشطار والاحبار ، وأول من راض هذا المعدن السيار على السكينة والقرار .

ولو أتيح لك ان تشهد ذلك البخيل وقد مثل عند صندوقه وألجأته الضرورة الى الاستمداد منه — وناهيك بها من ضرورة — اذن لحسبت انك تشهد فى جنح الليل الاعكر سارقا ينبش القبور عن اكفانها ، وقد تمكنه الهلع من حراسها وسكانها ، أو لحسبت انك تشهد كاهنا متحنثا يقوم عند صندوق النذور يهم بأن يمد يده اليه فيتحرج من أن يستحل ودائعه لئلا يحل عليه قصاص الله ويحيق به غضبه . فان الحت عليه الحاجة أقسم أن لن ينام ولن يهدأ او يرد الى الصندوق ما استعاره منه وقد لا تجد بين ألف كاهن كاهناً واحداً يقسم هذا القسم ويبر به ولكنك لا تجد بين الف بخيل بخيلا واحدا يحنث فى هذه اليمين

ففى وقفة من تلك الوقفات اقترض البخيل من صندوقه جنيها وآلى بالطلاق من عرسه ان لا يدخل البيت الا والجنيه معه وذهب

الى السوق فكدح فيها ماكدح واحتال حتى استرجع الجنيه نصفاً ذهبا والنصف الباقى قطعا فضية وكانت تلك عادته اذا ابدل الفضة بالذهب كى تكون كل قطعة صحيحة صماما حديديا يحبس فيها ماتحتويه من القطع الصغيرة أن تتناثر وتتسرب الى احداها نزعات الجود ووساوس النفس الامارة بالجميل والخبيث بسىء الظن بنفسه ويتهمها بالسخاء عن القليل الطفيف مداعبة لها اولا لاعلمها والا فقد وثق وثوق المؤمن بايمانه انه لو انثالت[1] عليه نقود المشرقين والمغربين دراهم ودوانق وسحاتيت لما سولت له نفسه أن ينفق سحتوتا منها في غير مايدفع التالف جوعا والهلاك عريا فما تمهل حين صار الجنيه في يده الا ريث أن اهرع الى الصيرفى فناوله اياه مفرقا وقال اعطنى به جنيها ذهبا

قال له الصيرفي هات خمس ملليمات

قال البخيل : وعلام هذه الملليمات الخمسة : انك تأخذ هذا الجعل من الناس على أن تنقدهم الفضة بدل الذهب وأنا أعطيك فضة واطلب ذهبا ؟ افلا تحمد الله على انى صفحت لك عن حقي وجئتك ساعيا الى مكانك ؟؟

فما زاد الصيرفى على ان وكزه فى صدره وكزة قذفت به الى الجانب الآخر من الطريق . فما تململ الرجل ولا

(١) انهالت

تأفف . بل وقف حيث قذفت به الوكزة صامتا . والصيرفى لايشك فى انه ينتظر ان يمر الشرطى فيستعدى به عليه فمر شرطى وثان وثالث لايدعوهم ولا يبرح مكانه . والناس يظنون انه يحدث نفسه بالانقضاض على الصيرفى فيوسعه ضربا ولكنهم فيخطئونه ويلومونه وينصحون له بأن يعتذر اليه ويسترضيه . وبيناهو كذلك أقبل على الصيرفى شيخ ريفى ، فكذب البخيل كل ظن وعاجل الشيخ فكان أسبق من يده الى جيبه وصاح به : رويدك ياهذا . انك تريد أن تبدل جنيها وهذا اليهوذى يتقاضاك خمسة ملليمات ، وانا أقنع منك بمليمين ، فهاك الفضة وهات الذهب . والتفت الى الصيرفى فقال بارك الله فيك فقد قيضت لنا رزقا كنا فى غفلة عنه ولا يزال هذا دأبنا كلما اجتمع جنيه عندنا ، ثم ولى والصيرفى يكاد ينشق عن جلده من الغيظ والناس يضحكون

وكأنى بك أيها القارىء تظن ان الرجل آلى بالطلاق وحرص ان لايمين فيه وفاء لزوجه وضنا بذات فراشه واحتفاظا بأم بنيه فاياك ان تظلم الرجل بهذا ، فان الاحتفاظ والضن بشىء غير المال ضعف يربأ بنفسه عنه . ولكنه تحرّى أفدح لايمان كفارة وأصعبها كلفة فرأى أن كفارة الحلف بالله سهلة وربما كان فى الصيام من الاقتصاد ما يغريه بالحنث كلما أقسم بالله . فاختار يمين الطلاق يهدد نفسه به ويخوفها من مؤخر الصداق ومؤونة

الاولاد ومصاريف القضايا، ثم لا بد له من زوجة تكفيه نفقة الخادم وشراء الطعام من السوق . وهذه الزوجة لا بد لها من مهر قل أو كثر ، دع عنك الاعراس وما تستدعيه من الخروج عن الانفاق ليلة أو ليلتين . فاذا آلى بالطلاق ذكر كل ذلك وأكثر منه فكان قيدا لا يستطيع منه فكاكا . ولا يفوته مع هذا ان يصانع نفسه بأنه من القابضين على دينهم الذين يجتنبون حدود الله ولا يلعبون بيمين كيمين الطلاق . والحقيقة انه لا يجتنب حدود الله الا لان اجتنابها يوافق هواه . ولو كلفه خوف الطلاق معشار ما يصون من ماله لجار عن كل حد لله وللخلق . وعلى أنه لم يضطر يوما الى امتحان دينه ولم يقف بين ارتضاء الطلاق وجرائره وانتهاك حدود الله وأوامره لانه لم يكذب على صندوقه قط . فاذا استعار منه فى الصباح سدد له فى الحساب فى المساء

ومرض هذا البخيل مرض الموت فجزع جزعا شديدا ، وكان جزعه لانه سيموت عن أقل من عشرة آلاف جنيه كاملة وكان ذلك كل أربه من الحياة . فاستحضر الطبيب بعد أن نهكته العلة ودب السقم فى أوصاله وعظامه ، فأمره بأن يتعاطى دواء وان يقصر طعامه على لحم الطيور . وكان صاحبنا على مذهب النباتيين اقتصادا لا فلسفة . فتملص يحايل الداء ويتماق الطبيب عسى أن يعدل عن وصفته ، والداء يأبي الا لحوم الطير والطبيب

مصر على رأيه . ولما كان أربه فى العيش لم ينته والعشرة الآلاف لم تكمل فقد رضى أهون الشرين وأصاخ لقول الطبيب وصار يأكل كما أمره وهو يتلهف ويتغصص ويتبع كل لقمة يزدردها بعناية حساب وهل أصعب في الهضم من حساب وأثقل على المعدة من الارقام الصماء ؟ ؟ ولم يزل يقول بكل أكلة : الله الله على الصحة ! ! لو كنت الآن صحيحا أما كانت تكفيني أكلة بدرهم ! فلم يسعفه الدواء ولم يمرأه الغذاء . وما ذاك الا لأن الطبيب داواه بالطب الذى يداوى به الناس ووصف له ما كان يصفه لكل مريض مصاب بمثل مرضه ، ونسى انه يداوى دائين لاداء واحد وفاته ان دائين أحدهما مزمن والآخر طارىء لا يصلحان بفرد دواء ، ولو سمعته كيف كان يأسف على الصحة ولماذا كان يأسف عليها لعلم ان صحة هذه البنية غير صحة سائر البني وان لها مرضا غير أمراضها وان الغذاء الذى ظن انه يشفيه ويقويه قد حز من بدنه وأضاف مرضا على مرضه . وقد مات المسكين بدائه ذاك ، وما أحسبه ندم على شىء وهو يفارق الدنيا ندمه على تلك الدراهم التى اطاع فيها الطبيب جزافا . وماذا عليه لو قد عصاه فلم يفقد سوى حياته ؟ ؟ ؟ ! !

ولهذا البخيل نوادر عديدة يذكرها معارفه فكان لا ينقضى له يوم الا على نادرة ظريفة مع بائع أو زميل أو شريك أو مدين

وكنت أستظرفه، فأتودد اليه وأشايعه على مذهبه فلا اقتصد في اطراء الاقتصاد ولا أبخل بكلمة في مدح البخل واذا فاوضته في الادب أو طالعت معه في الكتب لم يكن أحقر على لساني من اسماء هرم ابن سنان وحاتم طيء و كعب بن مامة ومعن ابن زائدة وأبي دلف وغيرهم من أجواد العرب فأشنع بهم وأسأل الله السلامة مثل مصيبتهم في عقولهم وأموالهم أقول له ما أجدر مادرا بتمثال من الذهب ، فيقول أي وأبي لولا ما في ذلك من الاسراف ، ولشد ما كان يتهلل وجهه حين أتلو عليه نكبة البرامكه فيقول حيا الله الرشيد ما أحكمه وأحزمه ، وقبحهم الله ما أخرقهم وأحمقهم . بادوا وخلفوا وراءهم للناس مثلا سيئا وقدوة ذميمة . وكانت له في أسباب نكبتهم فلسفة خاصة لم يفتح الله بها على أحد قبله . يقول لك لا تصدق ما يتشدق به كذبة المؤرخين عن اسباب نكبة البرامكة . فوالله ما نكبهم ولا قتلهم الا الاسراف والتبذير . أسرفوا في البذخ وبذروا اموالهم في الصلات فحسدهم الموصول وسخط عليهم المحروم ، فترصدت لهم العيون وتوغرت عليهم الصدور واستعظم الرشيد عليهم ما هم فيه فمثل بهم ذلك التمثيل وفجعهم في ارواحهم واموالهم وآمالهم فلم يغن عنهم صنائعهم وذووهم . ولو انهم بخلوا لنامت عنهم الانظار وخرست عنهم الافواه ، لأن من نعم الله على

البخلاء انه يجمع لهم بين مزيتى الغنى والفقر ، فلهم من الغنى المال الكثير ولهم من الفقر الامان من حسد الحاسدين . ولهم من الغنى القدرة على ما يبتغون ومن الفقر القناعة بيسير ما يأكلون ويلبسون وهما مزيتان لا يجمعهما الله الا لمن رضى عنه من عباده

بيد انني في صحبتي له كنت لا أستطيع ساعة أن أفكر بأنني أصاحب انسانا له على مثل الذى لى عليه ، وكنت أحمل نفسى على ان تصدق أنه من البشر كما تراه عيني فلا تذعن . وكيف وهي لا تحس بأدنى اختلاف بين ملاطفتي اياه وملاطفتي الكلب أو القرد الأليف ليأنس بي وينفر مني . ولقد ضل والله من يتألف الكلاب والقردة ويلهو برؤية الحيوانات العجيبة وعنده البخلاء يضمهم واياه جنس واحد ومدينة واحدة فلا يتألفهم ولا يخف الى رؤيتهم . أليس لو جاءك رجل فاخبرك بان في مدينة كذا دابة تموت من الطوى (١) وبين يديها الطعام الفاخر وبفرش لها المهاد الوثير متجفوه الى الارض الخشنة وتطلق فى الفضاء الفسيح فتنزجر وتئن ، وتسجن فى قفص الضيق فتطرب وتطمئن ، وقيل لك ان هذه الدابة منفردة بهذه الاطوار بين بنات جنسها أما كنت تهفو الى تلك المدينة او تتمنى ان تساق اليك تلك الدابة فالبخيل هو تلك الدابة الغريبة فى تكوينها الشاذة فى اطوارها

(١) الجوع

التي تعد من الناس وليست منهم ، وتجانسهم في الصورة والقوام ولا تشاكلهم

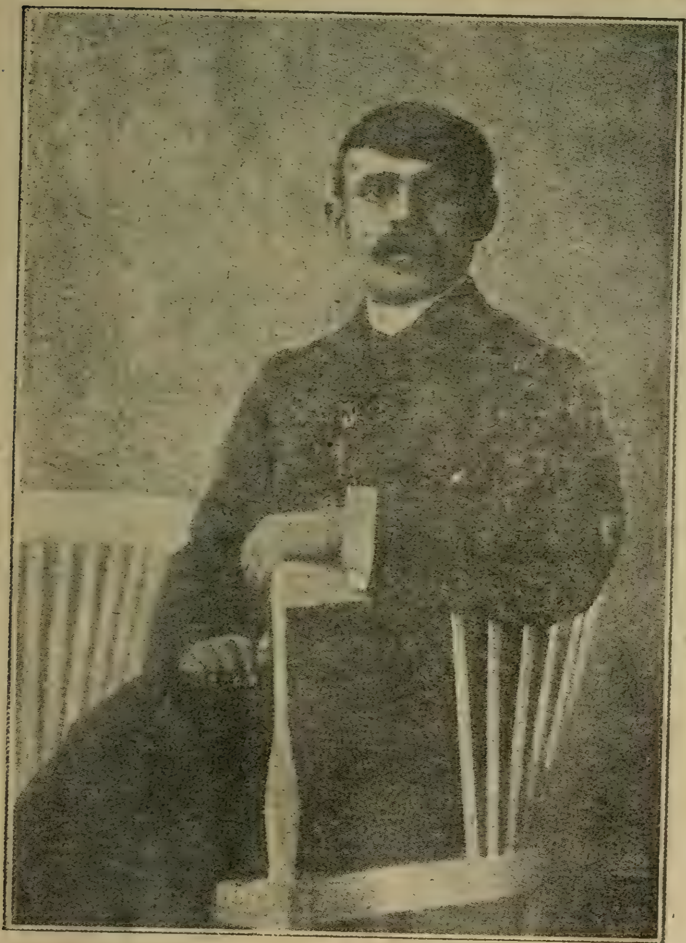
ان الناس يعرفون البخل بانه الحب المفرط للمال وهذا تعرف ناقص من جميع اطرافه . وهل العلاقة بين مبخل والمال الا كالعلاقة السطحية بين العلم والاوراق ، وبين الزمن والساعات ، وقد وجد البخل قبل أن تختجن الأموال وتسك النقود كما سلف العلم قبل ان تصنع الأوراق وتقدمت الشجاعة قبل ان تطبع السيوف ودار الفلك قبل ان تخترع الساعات . ولو أصبحت الدنيا قد انقرضت منها الاموال وفنى من أيدي الناس الذهب والفضة لما قضى ذلك بفناء البخل من قلوب البخلاء . لما قدمنا من أن البخل شيء بمعزل عن المال

وانما البخل عاهة تحجب الفكر وتفسد الطبع وتفرد المرء عن الفطرة العامة بين بني جنسه بفطرة منكوسة عوجاء وتذره خلقا عجيبا كل حظه من الحياة يستغرق الوسع في طلب الوسيلة ثم لا هو يقنع بالوسيلة ولا هو يطالب بها الغاية وليس البخل عاهة واحدة بل هو جملة عاهات ممثلة في هذه العاهة فهو مزيج من الجبن الدنيء الذي يصور للمرء الخطر المستحيل كأنه قضاء حتم لا مرد له ، ومن الخسة التي يتساوى عند صاحبها الفخر والعيب وتامحق عنده مراغه الهوان بمقاوم السؤدد ، البلادة التي تميت فيه كل

أريحيه فلا تهتز فى نفسه امنيه او عاطفه تقوى على كسر قيود شحه وجبنه . وقد ظهرت هذه الخلال للناس قبل ان يتمدينوا بآلاف السنين ومقتوها فمقتوا البخل متفرقا قبل ان يمقتوه مجتمعا . وغاية الفرق بيننا وبينهم انهم كانوا يستضعفون من تكون فيه خلة من هذه الخلال فينبذونه عنهم ويهضمون حقه ويدرسون حرمته ولربما طلوا دمه وتبرأ منه ولاة ثأره . واما فى مدنيتنا هذه التى وضعت سنة المال موضع سنة الحياة فقد صار البخيل فيها يحل ويبرم ، ويؤخر ويقدم ، ويحلل ويحرم ، ويستشفع اليها بيديها المال ويد فيها جبنه وخسته وبلادته فتقبل منه هذه لتلك .

وانها لعمرى لمن الخصال التى انحطت بها المدنية عن الهمجية — وما هى بالقليلة — فكم خصلة فى المدنية يستحب المدنى الهمجية لأجلها ويأنف الهمجى بحق ان يتصف بها ؟ !

﴿ اخلاق ومواعظ ﴾



للكاتب الاجتماعي المرحوم قاسم بك أمين

(الموظف فلان بك)

لم يأتِ وقت على مصر فشت فيه المنافع الشخصية بين الموظفين واستعملت فيه الدسائس لقضاء الشهوات والانانية الدنيئة مثل هذه الايام التى يعدها بعضهم عصرا جديدا لتقدم المصريين

نعم حدثت نهضة خفيفة في قوة التمييز واستعدت العقول للبحث عن الحقيقة المطلقة علمية كانت أو أدبية أو سياسية ونمت القوة المدركة قليلا بقدر مايلوح الفجر . ولكنى أقول والحزن يملأ قلبي أن أخلاق الموظفين وعلى الخصوص الكبار منهم لم تتقدم عن ذي قبل بل هى تقهقرت تقهقرا بينا .

ومهما كان اثبات أمر من هذا النوع مخجلا فقد رأيت من الواجب علي أن أطرق باب البيان فى هذا الموضوع عل الذكرى تنفع المؤمنين .

وان من يتأمل فى حركات الموظفين يشاهد منظرا عجيبا ذا فصول متقنة لتمثيل انوع اخلاقهم وفصول تخذ فى كل آن بطرق مختلفة وقد احببت أو أثرها بالبيان لافهام اخوانى المصريين الذين يحول بينهم وبينها ستار المناصب فأقول :

هذا الموظف « فلان بك » الذى يرشح نفسه فى كل يوم ثلاث مرات عند . . . . . . ومرة عند احد الوزراء العاملين وهو رجل مشهور عند القوم . ومن أين جاءت له هذه

الشهرة ؟ من غفلتنا جميعا . لاننا نحكم عليه بما نسمعه عنه منه فيقول لنا انا صنعت كذا وكذا وقلت كيت وكيت وطلب منى فلان العظيم ذاك الشيء فامتنعت وأجبت فلانا الباشا بكذا . ووبخت المستر فلان على فعل كذا . وهلم جرا . ونحن السذج البسطاء نصدق ذلك ونعتبر مايقوله حقا مطابقا للواقع . فيلذ لنا بعد ذلك ان ننشر عنه تلك الفضائل ونؤسس شهرته بايدينا ونحسبه من الافراد الذين يعدون على الاصابع والذين يدخرون لوقت الحاجة

نراه اذا كان فى مجلس وتحقق انه يكره الانكليز كان أول من يذمهم . واذا وجد نفسه فى جمعية انكليزيه كان أول من يذم أبناء جنسه . صادفته مرة بين قوم من الفرنساويين هم الذين دخلوا بلادنا لكنا اسعد الناس فان المصرى ميال بطبعه الى الفرنساوى ونحن نعتبر ان كل تمدننا هو عمل الامة الفرنسوية وسمعته مرة أخرى بين جماعة من الانكليز وقد فتح ازرار قلبه فى خطابه لهم يناجيهم : أنا أقول لكم فكرى بالصراحة ولا أخشى من مخالفة أغلب المصريين لرأيى . أنا أعتبر من حسن الحظ لبلادى ان فرنسا احجمت عن الدخول فى مصر وان الامة التى احتلت وطنى العزيز هى الامة الانكليزية العظيمة الشأن لانى لاانسى أبدا مافعله الفرنساويون فى مصر عندما احتلها بونابرت

يقول للسورى انه لايفهم معنى كراهية المصريين لهم وانه

لا يجب التمييز مطلقا بين افراد أمتين تجمعها جامعة واحدة .
ويقول للقبطي انه ممن يبغض السوريين ويعلم سر كراهية المصريين لهم لانهم اجانب . ولكن الاقباط والمسلمين أمة واحدة فيلزم أن يتحد الفريقان ليستأثر بمنافع بلادهم الخ

وعلامة هذا الموظف المشهور هي انه متى وجد في مجلس لا بد وأن يترك له أثرا يذكر به بعده في نفوس بعض الحاضرين ان لم يكن كلهم وعلى الاقل المهمين منهم . والاهمية عنده تكون على الترتيب الآتي في الظروف الحاضرة .

الانكليز . ثم الاوروبيون عموما . ثم الاقباط . ثم السوريون . ثم نصارى الشرق على العموم . ثم اليهود . ثم المسلمون

هذا الشخص يظن ان علم السياسة العملية هو غش الناس بكل وسيلة . ومن الغريب انه يحفظ لنفسه مكانه بهذه الطريقة ولا يكشف حقيقة أمره الا نفر قليل اذا تكلموا ضاع صوتهم الضعيف كما تضيع قطرة الماء في الاوقيانوس الاعظم

أيحب الناس من غشهم دائما ؟ أم قوة التمييز لا تزال ضعيفة فيهم ؟ انني لا أعلم ايهما بهما حقيقة الواقع

ومن ذا الذي يعلمني أن رجلا غشاشا يكره الناس ولا يريد لاحد مطلقا الخير — لا يحب الا نفسه . ولا يهتم الا بمنافعه الشخصية ان رجلا يداه مغلولة الى عنقه وقلبه جاف لا يفرح يوما لفرح

غيره. ولا تدمع عيناه لاحزان أقرب الناس اليه. ان رجلا يهزأ بالناس كلهم حتى يتخذهم آلات لقضاء شهواته واطماعه — يستطيع أن يدعى محبوبا محترما مشهوراً بين قوم متمتعين بقواهم العقلية ؟؟؟،،،

هذا الذى ترك الاوهام حائرة وصير العالم النحرير زنديقا

٢

(الموظف وأنا مالى)

هذا الموظف كثير العدد فى مصالح الحكومة ومنتشر فى جميع طبقاتها الكبيرة والوسطى والصغيرة انتشار الذباب فى الاماكن القذرة

يذهب فى الصباح الى الديوان حتى اذا دخل فى قاعة شغله وجلس على كرسيه اخرج من جيبه علبة السجاير واحرق واحدا منها . وفى خلال ذلك تأتيه القهوة فيشربها رويدا رويدا ثم يتثاءب ويتثاءب . وبعد ذلك اما ان ينتقل الى مقعده ليضجع ولو نصف اضجاع . واما ان يمن الله بالزائرين وينفتح باب المقابلات ويدخل عليه الطالبون والملحون ومن تبادل معهم من الامس وعدمجيئهم الى الديوان من الاصحاب والمحسوبين عليه ومن استدعاهم لقضاء مصلحته كجذار يحاسبه ، أو طباخ جديد ليجربه ، أو مرضعة لنجله تطالبه فيلقون منه ما تقتضى شعائر المروءة والبشاشة والوعود

حيث يخرجون واحداً بعد آخر ممتنين شاكرين . وتراه في أثناء ذلك كأنما نشط من عقال . غاب كسله . وذهب تثاؤبه . يبتسم مسروراً . لا يأنف من شيء ولا يمل من انسان ـ الا اذا كان طالباً ملحاً ـ يحكي بكل تلطف ويسمع بغاية الحلم . لا يستعمل قط حرف (لا) لانه نفي قاطع . ولكنه يعد ويعد ويعد بعبارات لا ترفع الامل ولا تستوجب اليأس ولو كان ذلك الأمر مستحيلا . مع انه يكون مصمما على ان لا يفعل ولو كان الطلب ممكنا وسهل المنال

ولكن انظر اليه بامعان متى دخل عليه أحد المستخدمين بورقة يريد عرضها عليه . تشاهد تبسمه قد غاب ووجهه تقطب وجاهد في استحضار قواه ليسمع مايعرض عليه ويعي — واني له ان يسمع ويعي — فيقول المستخدم المسئلة مرة ومرتين وثلاثا متفننا في طرق التفهيم عساه يوقظ الفكر النائم — وهو ليس هنا —

ثم يلاحظ ان من حوله شاخصون ساكنون منتظرون فيتدارك الامر ويجيب باي عبارة صادفت أو لم تصادف . وربما حوله على فلان المرؤوس له بحجة انه مشغول الآن أو أمره بارجاء عرضها الى وقت آخر لانها مهمة أو غير مهمة فيخرج المستخدم المسكين كما دخل والمسئلة باقية وعليه صرفها باى طريقة كانت

لو سألته لماذا ترك مسئله مهمة أو لماذا لم يعارض في امر كان من الواجب والنافع أن يعارض فيه أجابك يا أخي ماذا أصنع ؟؟؟

فاذا ألححت عليه ساق الحديث الى اختلاف الجو بين أوربا ومصر أو الى كدورة الهواء . أو الى اشتغاله بانحراف صحة أهل بيته . أو الى بيت لطيف تذكره من قول أبي نواس

وأكره من هذا النوع على الخصوص «الموظف وأنا مالى» الفشار الذى يفهمك انه قال وعمل ما يجب ان يعمل

يقول نعم أنا ماسكت . واستلفت انظارهم الى جميع أطراف المسئلة وشرحت لهم جميع نتائجها وما يترتب على عملهم من المضار . ولم أتأخر برهة عن اقامة الحجة عليهم بكل ماوسعنى وأظهرت لهم بالصراحة انني لست مشاركا لهم فى الامر وانهم يعملون على نقيض مبدئى بالمرة — ثم يختم كل عباراته هذه بقوله حينئذ «وأنا مالى !!! مع انه فى كل ذلك لم يكن قد نطق بكلمة واحدة

يقابلك بغاية اللطف وحسن المحيا والاشارات المطيبة للخاطر فتظنه شريكك فى الاحساس حتى اذا قصصت عليه شيئاً مما يشغلك الفيته بعيداً عنك . أبعد من سماكى القمر اليك . وترى اذا أمعنت النظر فى وجهه كأنما رسمت عليه هذه الكلمة بأجرف جلية . وأنا مالى، وانا مالى وانا مالى

آه لو لم يكن مطلوبا منه ان يتكلم في بعض المسائل الخطيرة لكان «الموظف وانا مالى» سعيداً، سعيداً، سعيدا

ولذلك تشاهده ما سعى ولن يسعى الا على وظيفة لاتكون

ذات أهمية الا فى مرتبها . ومتى أدركها طمحت نفسه الى غيرها أهم منها من جهة المرتب أيضا . وهكذا يستمر متنقلا من مرتب مهم الى أهم منه حتى يأتى اليوم السعيد الذى يناديه في كل آن فيحال على المعاش بمبلغ مهم جدا جدا جدا

٣

(الموظف الغاش بوطنيته)

كنت يوما فى منتدى جمع بين جماعة من خيار الموظفين والشبان الاذكياء الذين يدأبون على المطالعة ويحبون الجد والنشاط فى الاعمال ممن يربطنى واياهم اتحاد الفكر وتجمعني معهم وجهة الاحساس والشعور بحاجة جامعتنا فدار الحديث بيننا على تعيين أحد رفقائهم فى وظيفة عالية وقد اتفقنا جميعا على ان هذا التعيين يكون مجلبة خير كثير للبلاد . ثم مضت على ذلك ستة أشهر أو حوالى ذلك واتفق اننا اجتمعنا مرة أخرى وقد دار الحديث على ذلك الموظف — الذى لم يزل فى وظيفته العالية — فاتفقنا جميعا على ان تعيينه كان مجلبة شر كثير للبلاد

وذلك ان هذا الموظف كان دائما يتأوه معنا على حالة الانحطاط الاجتماعى من حيثية الاخلاق التي نحن فيها . وكان يقول كما نقول نحن ان أكبر اعداء مصرهم المصريون الذين نسوا واجباتهم نحو وطنهم واعتبروا ان الوظائف ما خلقت الا لكى تخدمهم لا لكى

يحدوها . وكنا قبل تعيينه نحكم عليه حكمنا على انفسنا لانه كان مثلنا يرى من الواجب على الموظف ان يقوم بالمسؤلية الملقاة عليه حق القيام . بل كان يزيد علينا فى الرأى بان هذا الواجب يتعلق بالموظف ايا كانت الظروف والاحوال على درجة واحدة حيث كنا نختلف معه من هذه الوجهة ونقف بالواجب فى كل حالة عند الحد الذى يناسبها بالحكمة والاعتدال . بمعنى ان الانسان لا يلزم الا بالواجب المستطاع اداؤه فى كل وقت بلا مغالاة ولا تقصير . لان السير الحسن فى الواقع ونفس الأمر هو مايترتب عليه نفع للوطن ولو كان مذموما عند بديهة النظر بين الناس . وان السير القبيح هو على العكس من ذلك بشقيه . ومن هذه الوجهة كان يطول بيننا وبينه الجدال ساعات ما احلاها لو تعود كما كانت عليه ولكنها لا تعود . فقد ثبت عند الخاص والعام ان الوطنية كانت لدى صاحبنا هذا كلمة كغيرها يلفظها اللسان من اطراف مخارج الحروف فلا يعرفها القلب . كانت قنطرة ليجتازها بقدميه توصلا الى مكان مقصود له بالذات : كانت قلعة اختارها للدفاع عن نفسه من مهاجمة اعدائه : كانت رايه تتبعها شهوات دنيئة وكان للتفاتنا حولها خطأ

على ان غاية ما كنا نؤمله فى وطنيته ان ينهج خطة الرشد فى العمل ويألف مقال الحق ويشتغل على قدر ماتجود به قوته وتسمح

به استطاعته . وان يساعد ابناء جنسه ويوجد لنفسه بعمله ونشاطه ويقظته وحسن سياسته مركزا يجعله انسانا فعالا نافعا خادما امينا لابناء وطنه

فلما وصل الى حيث كان يرمى صار مثل كل جبان نذل يحب ذاته ويعبد انانيته : لا يهتم ولا يحرك الا لصيانة مركزه الخصوصى وتحسينه ومحا من ذاكرانه — محوا نهائيا — تلك الاقوال الجميلة الشائقة التى كان يطنطن بها عند ماكان الحديث يدور على أعمال الغير . بل صار مستحقا للاحتقار اضعاف ذلك لانه غش الناس واستعمل الحيل لايهامهم انه يحرز شمائل وصفات لا يوجد ظلها فى الحقيقة عنده . وانى لفى حيرة من أمره

ما الذى حمل هذا الرجل الذى توفرت لديه وسائل واسباب كثيرة تمكنه من ان يعيش راضيا مرضيا عنه ومحترما على ان يسلك طريقا لم يكسبه الا المعرة ؟ ..

فهو متعلم ونبيه . ذو قدرة على الفكر والعمل . لو ولد انكليزيا أو فرنساويا أو المانيا — بل أو بلغاريا أو ارمنيا لما وضع صفات التعلم والنباهة والقدرة على الفكر والعمل في غير خدمة ابناء وطنه ، لكن عيبه الوحيد انه ولد مصريا فلم يفكر الا فى خدمة نفسه ،،

على ان الجمع بين الخدمتين ليس محالا ولا متعذر الحصول ، فقد رأينا فى جميع بلاد الدنيا ان الانسان قد تكون عنده شراهة

فى حب جمع المال والكسب وشغف بنوال الالقاب والرتب والوسامات ، ولكنه مع ذلك كله يحب وطنه ويعمل لتقدمه ويساعده اخوانه ويكره أعداءه واعداء وطنه

فلماذا يا ترى يخالف الموظف المصرى غيره حتى يعتبر ان منفعته الخصوصية يلزم ان تكون فى جميع الاحوال مضادة للمنفعة العمومية ؟؟

كيف يتصور أن رجلا — تلقى العلم عن أهله وتربى على أجود قواعد التربية المتبعة فى أحسن الممالك وعاش فى وسط حب الشغل والعمل التام وشاهد أحوال الامم الاخرى ورأى تنافسها لبعضها فى سبيل الترقي واحتك برجالهم العقلاء — يرضى لنفسه عيشة الخمول والكسل ، لاتحركه غيرة ولا يهزه احساس ، ولا تستنهضه غاية شريفة يسعى وراءها

وماذا يكون بعد هذا الحال زيد خلف عمرا وبكر خلف زيدا الخ . الخ وقال كلهم نحن نأتى بما لم يستطيعه الاوائل قبلنا . نحن ندرى كيف نخدم وطننا . كيف نذود عن حقوق اهلينا . كيف نحفظ لجامعتنا شعارها وزمارها ودثارها . فلما جلسوا على الكراسى المذهبة وتناولوا المرتبات الوافرة وتصدروا فى المجالس بحيثيات مناصبهم ورأسوا الموائد فى الولائم والمآدب قالوا لانفسهم انها لعيشة جميلة فلنتمتع بها . وأما بعدنا فلا نزل القطر

ألم يفكر المصريون فى عواقب هذه المخازي ،
ألم يسمع هؤلاء المغرورون ان بعض الاجانب الذين يحبون مصر يقولون جهارا «اذا كان أبناء هذا العصر هم كما نرى فنحن نفضل عليهم أبائهم وأجدادهم»

٤

(الموظف السياسي)

اذا كان المقصود من السياسه الدأب على ارتكاب الاشياء الدنيئة كما عرفها (رشليو) المشهور فذلك الموظف يكون جديرا بأن يسمى سياسيا لانه ماهر فى فن المداهنة واستمالة الخواطر واختلاس الثقة من صدور الناس والدخول فى دائرة مودة ولاة الامور بالالحاح والعنف والسقوط على أسرارهم الى أعماق الضمائر حتى اذا أخذ كل ما يريده منها كانت له سلاحا يستعمله

يقول مالا يعتقد ويعتقد مالا يقول ، ويتظاهر بالشفقة على ذويه وباغاثة المظلومين ومساعدة الضعفاء ، ويهتم دائما لان يكون له ملاذ قوى يلجأ اليه عند الضرورة . وحزب يتقوى به عند الحاجة الى استعمال القوة الذاتية ومحاسيب يستعين بهم كوسائل لمطالبه

عرف الناس جيدا ووقف على أخلاقهم فوضح له ان أكثرهم يفضل كلمه حلوة — ولو لم يعقبها عمل نافع — على أنفع الاعمال مجردا عن تلك الحلاوة . فحقق من ذلك لفظة عذبة وحركة ناعمة

تكفيان لأن يؤسس عليهما شهرة سامية وسمعة فائقة ؟؟

ولا أقول انه لا ينفع أحدا مطلقا . وانما أقول لا ينفع الا نفرا من الناس يرى فيهم الاستعداد لان يكونوا مماليك في قبضة يده يتحركون حسب اشارته

اما مبدوءه فعدم المبدأ : كان عرابيا مع عرابى حيث كان رجل الوقت . فلما شام نجمه آخذا فى السقوط تحول عنه وقطع أوداج العلائق معه وانكر بالمرة معرفته

ثم كان أول من أخذ طنبورته وغني عليها نغمة المديح فى . . . . . ولكنه لما رأى قدم الانكليز ثبت بعد الاحتلال شيئا فشيئا وسلطتهم تتزايد يوما فيوما انحاز الى صفهم وارشدهم ونصحهم واوصلهم باخبار « آخر ساعة » وقدم لهم قوائم باسماء المشبوهين واطلق على برنامجه هذا « سر الوطنيين »

ثم لما رأى مركز . . . . قد تقوى على اثر تولية . . . . وصار كما يجب ان يكون — أول عامل فى ادارة البلاد — أخذ يقدح فى الانكليز من ورائهم ويهجو أعمالهم ويشرح مقاصدهم السيئة حتى حرك النفوس لدى البعض الآخر ، وبذر الفتن ، وجهز الزلازل ونفخ بفمه ريح العواصف ، وعكر المياه فطاب له العيش في هذا الوسط المحشو بالاخطار . وكنت تراه خلال ذلك منشرحا مسرورا كمن آل اليه ميراث جديد وصار فى نشاط غريب حتى

أوصل سياسة الغش والدهاء الي درجة لم يكن يحدث نفسه بها

وكان يذهب الى كل فريق فيخاطبه بالالفاظ المذبة التى تحلو على مسمعه فتمكن وقتئذ من الايقاع باشخاص كثيرين أما بنميمة ألقاها فى وسط الحديث ،أو باستعلامات غير حقيقية اخترعها ولم يفكر لحظة فى النتائج الوخيمة التى تترتب على هذه الاعمال

وقوة هذا الموظف كونه دائما متيقظا وعالما بحركات الناس واميالهم وصفاتهم وعيوبهم . وكونه يشتغل ويعمل دائما بنشاط وحركة لا يقبلان الملل.

لذلك تمكن من أن يكون ذا مركز مهم ومنزلة سامية بين الناس

يعتبره الاوربيون من أبناء مصر الفتاة الذين يقدرون أوربا حق قدرها ويعترفون لها بالفضل على مصر ويتمنون المعيشة تحت سيطرتها . والذين منتهي آمالهم أن تكون مصر بلدة مختلطة محكومة بحكومة مختلطة .

ويعتبره الانكليز رجلا نبيها قد يلزم رغما عن عيوبه فى بعض الاحيان لحل المعقود أو لعقد المحلول من الامور على حسب مقتضيات الاحوال

ويعتبره المصريون انه رجل ذو دهاء يمكنه ان يؤدى للبلاد خدامات كثيرة وينال من الانكليز بالخديعة والحيلة ما لا يناله غيره

غيره. ولا تدمع عيناه لاحزان أقرب الناس اليه. ان رجلا يهزأ بالناس كلهم حتى يتخذهم آلات لقضاء شهواته واطماعه — يستطيع أن يعيش محبوبا محترما مشهوراً بين قوم متمتعين بقوام العقلية ؟؟؟»

هذا الذى ترك الاوهام حائرة وصير العالم النحرير زنديقا

٢

(الموظف وأنا مالى)

هذا الموظف كثير العدد فى مصالح الحكومة ومنتشر فى جميع طبقاتها الكبيرة والوسطى والصغيرة انتشار الذباب فى الاماكن القذرة

يذهب فى الصباح الى الديوان حتى اذا دخل فى قاعة شغله وجلس على كرسيه اخرج من جيبه علبة السجاير واحرق واحداً منها. وفى خلال ذلك تأتيه القهوة فيشربها رويداً رويداً ثم يتثاءب ويتثاءب. وبعد ذلك اما ان ينتقل الى مقعده ليضجع ولو نصف اضجاع. واما ان يمن الله بالزائرين وينفتح باب المقابلات ويدخل عليه الطالبون والملحون ومن تبادل معهم من الامس وعد مجيئهم الى الديوان من الاصحاب والمحسوبين عليه ومن استدعاهم لقضاء مصلحته كجذار يحاسبه، أو طباخ جديد ليجربه، أو مرضعة لنجله تطالبه فيلقون منه ما تقتضى شعائر المروءة والبشاشة والوعود

حيث يخرجون واحداً بعد آخر ممتنين شاكرين . وتراه فى اثناء ذلك كانما نشط من عقال . غاب كسله . وذهب تثاؤبه . يبتسم مسروراً . لا يأنف من شيء ولا يمل من انسان - الا اذا كان طالباً ملحاً - يحكي بكل تلطف ويسمع بغاية الحلم . لا يستعمل قط حرف (لا) لانه نفي قاطع . ولكنه يعد ويعد ويعد بعبارات لا ترفع الامل ولا تستوجب اليأس ولو كان ذلك الأمر مستحيلا . مع انه يكون مصمما على ان لا يفعل ولو كان الطلب ممكنا وسهل المنال

ولكن انظر اليه بامعان متى دخل عليه أحد المستخدمين بورقة يريد عرضها عليه . تشاهد تبسمه قد غاب ووجهه تنقطب وجاهد فى استحضار قواه ليسمع مايعرض عليه ويعي — واني له ان يسمع ويعي – فيقول المستخدم المسئلة مرة ومرتين وثلاثا متفننا فى طرق التفهيم عساه يوقظ الفكر النائم — وهو ليس هنا — ثم يلاحظ ان من حوله شاخصون ساكنون منتظرون فيتدارك الامر ويجيب باي عبارة صادفت أولم تصادف . وربما حوله على فلان المرؤوس له بحجة انه مشغول الآن أو أمره بارجاء عرضها الى وقت آخر لانها مهمة أو غير مهمة فيخرج المستخدم المسكين كما دخل والمسئلة باقية وعليه صرفها باى طريقة كانت

لو سألته لماذا ترك مسئله مهمة أو لماذا لم يعارض في امر كان من الواجب والنافع أن يعارض فيه أجابك يا أخي ماذا أصنع ؟؟؟

ولكنه فى الايام الاخيرة قد اكتشف كثير من المصريين الذين يستعملون دخائل الأمور وما يجرى وراء الستار ان سياسة الرجل لاتخرج عن حيل « قره كوز » البسيطة . وان هذه الاوقات الصعبة التى تنتقل فيها البلاد من حالة الى حالة تستدعى رجالا يفهمون منافع الوطن الحقيقيه الدائمة ويشيدون آرائهم وأعمالهم على العلم لاعلى الحيل

أولم يكن الاجدر بهذا « الموظف السياسى » ان يستعمل بعض الصفات التى امتاز بها على كثير من غيره فى خدمة بلاده . وان يسعى الى الخير والمجد رفعة القدر وحسن السمعة من طرقها الحقيقية التى تنحصر فى تقوى النفس وعمل الخير ؟

٥

(صاحب المعاش)

ترك الحكومة — أو على الاصح تركته الحكومة — وهو أكثر مايكون فى الغالب متمتعا بقواه البدنية العقلية وسواء كان معاشه كافيا لاقتضاء لوازم معيشته أو غير كاف . وسواء كان غنيا فى حد ذاته او فقيرا تراه دائما كثيف البال آسفا على وظيفته أسفا شديدا لانه يظن — كما اعتاد أهل بلادنا ان يعتقدوا أن الانسان قليل بنفسه كثير بوظيفته . ولانه يشاهد دائما أن الواحد عند مايكون فى وظيفة عالية يحترم ويجل مقامه

ويزار وتتزاحم العربات والبغال والحمير على باب منزله الذي يكون مزهرا بهجا تحييه حركة مستمرة وتحف به حياة طيبة. فاذا أحيل على المعاش انقضى كل ذلك وأصبح هذا الشخص بذاته مهملا مهجورا بل ومندهشا: كمن رأى رؤية مفرحة واستيقظ من نومه فجأة

فلما يتخيل صاحب المعاش كل ما كان عليه بالامس وما أصبح فيه اليوم لا يستطيع ان يمنع نفسه من التأثر والتحسر

ولو تذكر الناس ان الشرف والمجد لا يصادفان في طائفة الموظفين الا بنسبة قليلة جدا . وان كل انسان قادر على ان يرقي نفسه بنفسه وان يعلو على اكبر ملك في الدنيا بفضله وعلمه ، لما رأى ورأوا في انفصاله من خدمة الحكومة الا حادثة اعتيادية لا تزيده ولا تنقصه شيئا

ولكن كيف يتأتى وجود هذه الملكة في امة تصورت انها خلقت ليحكم نصفها النصف الآخر ؟!!! وعند رجال اذا قلت لهم علموا اولادكم قالوا « انا لا نجد في التعلم فائدة حيث الحكومة قفلت ابوابها في وجوه ابنائنا » :: كأن العلم لا قيمة له في حد ذاته او كان العلم كسب المال سهل وحل في الحكومة صعب وحرام خارجها

ومما يزيد تألم صاحب المعاش على فراق وظيفته انها كانت في الحقيقة الشيء الوحيد الذي يشغل اوقاته بها — لا لانه كان منهمكا في تأدية جميع الواجبات المتعلقة بها — بل لانه اعتاد على ان يمضي

وقته بكيفية مخصوصه لم يعد فى امكانه استعمالها . ولذلك ترى ارباب المعاشات في حيرة لايدرون معها ماذا يصنعون لاجل ان يقتلوا الزمان قبل ان يقتلهم . فمنهم من يخرج في الصباح لزيارة من هم على شاكلته يوميا ولا يعود الا وقت الظهر . ومنهم من يقصد القهاوى والاندية العمومية للعب من الساعة السابعة صباحا الى ان ينبهه دوى مدفع الظهر ايضا . ومنهم من يجلس على كرسى امام باب منزله او حانوت او اجزخانة ليتأمل في حركة الشارع نحوا من اربع او خمس ساعات . ومنهم من يقضى اكثر اوقاته معتكفا فى المساجد . ومنهم من يطرف على مصالح الحكومة يوميا ليتمتع بمشاهدة السلطة التي حرم منها حيث يجد فى الاحتكاك باهل الحل والعقد بعضا من اللذة او التعذية

ولم ار فيهم من اوجد لنفسه عملا يشتغل به بدلا عن وظيفته ؟:

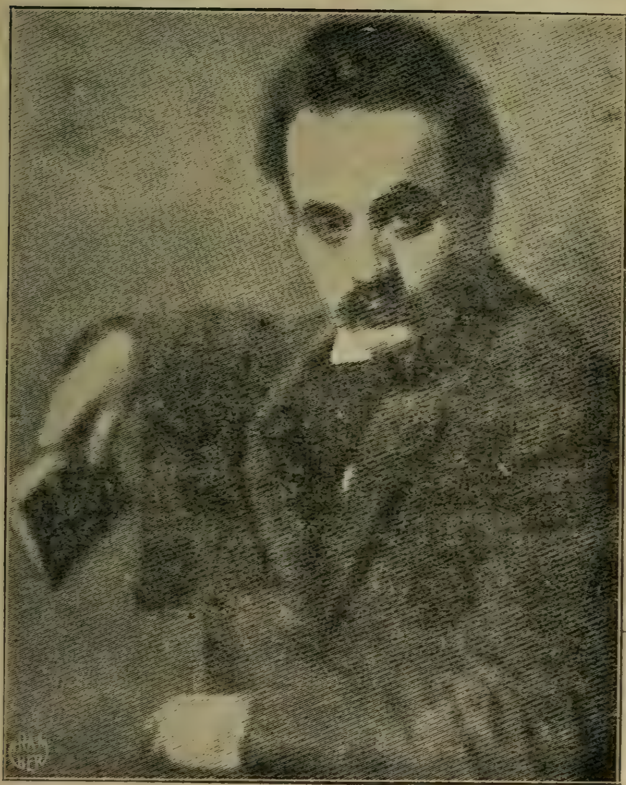
أ ذعرف أيها القارىء واحد من ارباب المعاشات الذين يكثر عددهم كل يوم يشتغل فى منزله ساعة او ساعتين يتعلم علم يجهله او اتقان فن تعلمه ، ومنهم الطبيب والمهندس والعسكرى والادارى والمشرع ، وبين جميع هؤلاء الغني والفقير المحتاج ؟ فهلا اشتغل الغنى لترقية عقله والفقير كذلك او استعان هذا على معالجة فقره بالسعى في طلب الرزق

ايليق بقوم يطمعون بتحسين مستقبلهم ان يعيشوا في وسط

التنافس العام بالبطاله والكسل ::

ومما يدهش الفكر ويؤلم النفس ان صاحب المعاش يرى من حين تخليه عن المنصب انه لم يبق من الواجب عليه ان يهتم بشيء مما يحصل فيها بالمرة فاذا سمع خبرا محزنا او نبأ وافقه مكدرة تراه بعيد الشعور بقدر ماهو بعيد عن الوظيفه او بقدر ما هو قريب امل الرجوع اليها . واول كلمه تخرج من فيه «الحمد لله على انى فى بيتى وبعيد عن نصب المنصب» . كأنه صار أجنبيا عن البلاد بالمرة وكثيرا مايتصامم عن سماع اى حديث يكون موضوعه المصلحه العموميه :لانه لايحب ان يتداخل فى شؤون الحكومة :::وقد يفضل على ذلك سماع القصص الخرافيه ونوادر الاعصر القديمه التى يحفظها بوعى وذاكرة قويه ليته استعملها لحفظ شيء نافع

جبران خليل جبران



عرفت روحي روح جبران خليل جبران منذ سنين اما شخصه فلم أنظره غير مرة واحدة فقط . ومع ذلك عشقته قبل أن أراه . بل عشقت روحي روحه، وليس قوة تحت الشمس تمنع الروح عن الاقتراب من روح اخرى متى رات فيها ما يجذبها اليها

والارواح تعشق بعضها هازئة بالتقاليد غير حافلة بالمقامات فقد تميل روح عامل بسيط الى روح اكبر فيلسوف وتهوى روح رجل شرير روحا فاضلة فتتبعها ولا تجد منها صدودا بل بالعكس فان الروح الفاضلة تجذب اليها روح الرجل الشرير وتعلمها الصلاح وما ذلك الا لان النظام الروحى ارقى من النظام «الجسدى» .

فروحى تحب جبران غير ناظرة الى من انا ولا الى من هو فى هذه الحياة لانها خاضعة لنظام الارواح لا تباهى للفروقات الارضية

قرات بين سطور جبران اكثر مما سطرته انامله فى رواياته وسائر مؤلفاته التى اسعدنى الحظ وطالعتها ولهذا انا احبه

رافقته فى رحلات كثيرة ووقفت معه فى مواقف عديدة فاذا به هو هو ذلك الرجل المتمرد على الخرافات الثائر على الارضيات المحتقر المادة الناظر الى عالم الارواح السامى فمن ينظر اليه كما انظر اليه انا ويعرفه كما اعرفه ولا ينصب له على عرش قلبه تمثالا يفوق بجماله كل تماثيل عظماء البشر على الارض ؛

وقفت مع جبران على حافة الوادى انظر الى شهداء الشجاعة والحب والشيخوخة وقد عبثت بهم يد الظلم سمعته يتنهد ويقول: « تنهدت ولو مست شعلات تنهداتي اشجار ذلك الحقل لتحركت وتركت اما كنها وزحفت كتائب كتائب وحاربت بقضبانها الامير وجنوده وهدمت بجذوعها جدران الدير على

رؤوس رهبانه» ـ من روايته «صراخ القبور)ـ فوددت ان اكون قائدا لاحدى كتائب جبران لانتقم للمظلومين من مظالمهم ورأيته يدخل هيكل عشتروت ليجتمع بسلمى كرامه فرافقته ولم أدخل لئلا ازعج وحدة قديسين ارضين قدسهما الحب واكتفيت بان اسمع بلاغة الحكمة من فم جبران وان اتعلم كيف يصان الشرف وتحفظ العهود حتى في احرج المواقف من سلمى كرامه

سكبت معه (دمعة) وابتسمت معه (ابتسامة) رافقته في (العاصفة)

وقفت واياه مع (حفار القبور)

مررت معه وراء نعش (مرتا البانية)

ودرست مبادئه في روايته (الخليل الكافر)

و(مضجع العروس) و (سفينة في ضباب) واخيرا سمعت انه صار (نبيا) وقد قرات في السائح بعض آياته فآمنت بان كتاب (النبي) لا شك في انه نبي الكتب واحنيت راسا احتراما لروح جبران الظاهرة في حرف من حروف آيات (نبيه)

نيويرك م٠ ع٠

الحب

من جملة ما قاله على الحب

* * *

(الحب لا نعطي شيئاً سوى نفسه ولا نأخذ شيئاً الا من نفسه.
(الحب لا يملك ولا يملك لان الحب كاف للحب)
(عند ماتحب لاتقل (ان الله في قلبي) ولكن (انى انا في قلب الله)
لاتتوهم انك تستطيع تسيير الحب لان الحب اذا القاك مستحقا يدرب هوى مسيرك)

* * *

وقال من جملة عن الاولاد
(ان اولادكم هم ليسو أولادكم ... هم ابناء وبنات الحياة الشائقة لنفسها)
قد تواوون اجسامهم اما نفوسهم فلا . لان نفوسهم تسكن في بيت الغد حيث لا تستطيعون الدخول حتى بالحلم ...»
«انتم اقواس مشدوده تندفع منها اولادكم فهم سهام حية»
«ان الرامي يرى الهدف في طريق اللانهاية فيلوكم بكل قوته.

لكى تنطلق سهامه سريعة وتذهب بعيدة»

***

وقال فى العطاء

«انكم تعطون قليلا اذ تعطون من اموالكم اما العطاء الحقيقى فهو عندما تعطون من ذواتكم»

«ماهى اموالكم سوى اشياء تحفظونها وتحتفظون بها مخافة ان تحتاجوا اليها غدا»

«وغدا، ماذا عسى ان يجلب الغد للكلب الحريص الذى يدفن العظام فى رمال الصحراء وهو لاحق بالحج الى البلد المقدس،»

وما هو الخوف من الفاقة سوى الفاقة نفسها، أوليس ان الخوف من الظمأ اذ تكون آباركم طافحة هو ظمأ لا يروى،»

***

وقال عن الجرائم والعقاب

«عندما يسقط احدكم فانما يسقط من أجل الذين وراءه اذ يكون منبها لحجر العثرة»

«ويسقط ايضا من أجل الذين امامه اولئك الذين كانوا اسرع منه واثبت قدما ولكنهم لم يزيحوا من طريق حجر العثرة»

«وهذه ايضا اقوله لكم وان ثقلت هذه الكلمة على قلوبكم»

«ان القتيل ليس خاليا من مسؤولية قاتله»

«ان المنهوب ليس بلا ملامة لانه نهب)
(والصالح ليس بريئا من أعمال الشرير)
(وذا اليد البيضاء ليس نظيفا من قذارة المجرم)
ان المجرم هو غالبا ضحية فريسته)

* * *

وقال عن الشرائع
(انتم تفرحون بتدوين الشرائع)
(على انكم تفرحون اكثر بهدمها)
(مثل الاولاد على شاطىء البحر الذين يبنون ابراجا من رمال باجتهاد مستمر ثم يهدمونها ضاحكين)
(ولكن بينما انتم تبنون ابراجا من رمل يقذف البحر رمالا جديدة الى الشاطيء)
وعندما تهدمونها ضاحكين يضحك البحر معكم)
(بالحقيقة ان البحر يضحك دوما مع البسطاء)

كلماته الفلسفية

قال متفلسف لكناس الشوارع — « انى اشفق عليك لان عملك مضنك وقذر » فاجاب كناس الشوارع — » اشكرك ياسيدى ولكن قل لى ما عملك ، » فاجاب المتفلسف متبجحا (ادرس اخلاق الناس وطبائعهم وابحث فى اعمالهم ومنازعهم (فضحك كناس الشوارع وسار فى طريقه قائلا (يامسكين ، يامسكين

*
* *

الانسان يبتدع الآلات ويسيرها ثم تسيره وهكذا يصير السيد عبدا لعبده

*
* *

ما نهاني امروء عن أمر الا وكانت رغبته فيه اشد من رغبتي .

*
* *

رأيت وجه امراة فرايت اطفالها ولم يولدوا بعد ونظرت الى وجهى فعرفت ابائى وجدودى وقد ماتوا قبل ان تولد .

لولا البصر والسمع لماكانت الانوار والاصوات سوى ارتعاشات مضطربة فى الفضاء . كذلك لولا القلب الذى يحبك والقلب الذى تحبه لكنت هباء منثورا

*
* *

من يشفق على المرأة يمتهنها ومن يعزرو بلات الاجتماع اليها يظلمها ومن يحسب صلاحها من صلاحه وشرها من شره كان مدعيا متبجحا ولا ينصفها الا من يرضى بها كما ارادها الله لا كما يريدها

*
* *

بعض ابائنا كالذنوب وبعضنا كالاعذار

*
* *

الفقر غلطة وقتية اما الاثراء فوق الحاجة فعلة مزمنة

*
* *

انما العشق حاجة غير منقضية .

*
* *

اجتمع اديب فقير بموسر بليد فتبادلا الادب والنشب ولما افترقا لم يجد الاول فى يده سوى حفنة من تراب ولم يشعر الثاني فى قلبه بغير نفخة من الضباب

*
* *

يحسبون الفضيلة فى كل ما يتمينى ويرح جارى . ويظنون الاثم فى كل ما يرنى ويتعب جارى . فياليتهم عرفوا ان بامكانى ان اكون فاضلا او اثيما وانا فى صومعة لايجاورها احد من الناس

*
* *

راجع دفاتر امسك تجد انك لم تزل مدينا للناس وللحياة .

اللين واللطف من مظاهر القوة والعزم لا من مصادر الرخاوة والضعف .

*
* *

زرعت اوجاعي فى حقل من التجلد فنبتت افراحا

ليس اللؤلؤ سوى راى البحر فى الصدف ولا الماس سوى راى الزمن فى الفحم .

*
* *

لو تغيرنا مع الفصول لما غيرتنا الفصول .

*
* *

الخوف من الجحيم جحيم والشوق الى الجنة جنة

*
* *

لو كان كل مايقولونه عن الخير والشر صحيحا لكانت حياتى كلها اثما فادحا .

*
* *

علينا الا ان ننسى ان سكان الكهوف ما برحوا ساكنين كهوف افكارنا .

ترى هل تنتهي اغنية البحر عند شواطئه ام فى قلوب المصغين اليها .

*
* *

المثرى يتقرب من الاصيل والاصيل من المثرى وكل منهما

يكره الآخر

*
* *

اكثرنا فكرة مترددة بين تمرد صامت وخنوع ثرثار .
التجارة مبادلة ماذا والا فهي سرقة

*
* *

انما الفرق بين ما يظهر لنا من الرجل الكبير وبين ما يخفى عنا كالفرق بين قطر يتساقط على حقولنا وسحاب يسير منسابا فوق جبالنا

*
* *

بين فكرة الانسان وخياله مسافة لا يقطعها سوى شوقه

*
* *

احسن الناس من اذا مدحته خجل واذا هجوته سكت

*
* *

انما المنشد من يغني انشاد صمتنا

*
* *

قد تكون المناصرة ضربا من احتقار المناصر وضدها شكلا من الاحترام

*
* *

تعلمت الابتكار من الببغاء

ليس هناك ادعى الى محبتنا الاحياء من اسفنا على الاموات.

*
* *

ما اعجزني عن ابلاغ صوت الحياة في روحي الى اذن الحياة في روحكم

*
* *

التمني بدء التحقيق

احب في الادب ثلاثة - التمرد والابداع والتجرد

*
* *

واكره في الادب ثلاثة - التقليد والمسخ والتعقيد.

*
* *

ليس الشاعر باكثر من زنبقة نابتة في جمجمة.

*
* *

ليس ادل على شكنا في امر من مبالغتنا في اثباته.

*
* *

اذا خيرت بين شرين اختار الشر الظاهر منهما وان يكون الاكبر دون الشر الخفي وان يكن الاصغر

*
* *

ما اصغرني امام نفسي عندما تعطيني الحياة ذهبا

فاعطى الناس فضة ثم احسبنى كريما جوادا .

***

لولا مقايسنا واوزاننا المحدودة لتهيبنا امام الحباحب مثلما تتهيب امام الشموس .

***

احفر فى الارض تجد كنزا ولكن عليك ان تحفر مؤمنا كالمزارعين .

لا ولن نستطيع بلوغ الأعالى المنورة الا عن طريق الاعماق المظلمة .

***

كيف نسمع اغنية الحقل واذأننا لم تهضم ضجة المدينه ...

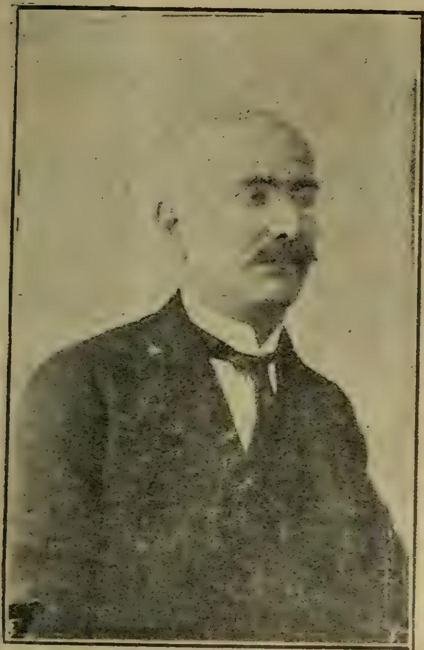
*بين العقلاء والمجانين فاصل ادق من نسيج العنكبوت
نصف الشفقة انصاف

*من الناس من لا يجد لذة الا فى البحث عن الالم ومنهم من لا يستنظف نفسه الا فى البحش في الاقذار

*ليس هناك امر ادعي الى خجل الشرقيين المعاصرين من أثار الشرقيين الغابرين

*كلنا سجين ولكن بعضنا في سجون ذات نوافذ وبعضنا في سجون بدون نوافذ .

التأليف فى الاسلام



للكاتب المؤرخ محمد افندي كرد علي صاحب مجلة (المقتبس)

من جملة مخطوطات دار الكتب الظاهرية بدمشق كتابان عظيمان تعددت مجلداتهما فدلا على اتساع نطاق التأليف فى الاسلام ايام كان علماؤه منصرفين الى العلم والعمل يصرفون أثمن اوقاتهم فى خدمة الامة وهما كتاب الكواكب الدرارى فى تبويب مسند الامام احمد على أبواب البخارى لجامعه الامام ابى الحسن على

ابن عروة الحنبلي من أهـل القرن التاسع وكتاب تاريخ دمشق الكبير لواضعه الحافظ ابي القاسم ابن عساكر من أهـل القرن السادس .

هذان السفران الجليلان آيتان ناطقتان على طول نفس اجدادنا وشدة وانئنا وجهالتنا فقد وجد من الاول مجلدات كثيرة ضخمة لاتقل عن ثمانين مجلداً متفرقة ومما وجد منها المجلد الثاني والعشرون بعد المائة بحيث لايظن ان الكتاب بلغ اقل من مائة وخمسين مجلدا في التفسير والحديث والاصول والفقه الحنبلي وتراجم الحنابلة ومباحث في الفلسفه والكلام والتاريخ والادب فهو دائرة معارف اسلامية حقيقية ضمت بين جوانحها اشهر كتابات علماء الحنابلة وكبار مجتهدي الامة مثل شيخ الاسلام ابن تيميه وابن قيم الجوزية وابن رجب وغيرهم من الاعلام

واما تاريخ دمشق فمنه الآن نسختان في عشرين مجلداً ونسخة وقعت في عشر مجلدات ضخمة وهي تامة وكان كتب في ثمانين مجلدا . ولقد جرى ذكره بين حافظ (١) مصر في عهده زكي الدين المنذري وطال الحديث في امره واستعظامه فقال حافظ مصر : ما أظن هذا الرجل الا عزم على وضع هـذا التاريخ من يوم عقل على نفسه وشرع في الجمع من ذلك الوقت والا فالعمر

(١) وفيات الاعيان

يقصر عن ان يجمع فيه الانسان مثل هذا الكتاب بعد الاشتغال والتنبه . قال ابن خلكان : ولقد قال الحق ومن وقف عليه عرف حقيقة هذا القول ومتى يتسع للانسان الوقت حتى يضيع مثله وهذا الذى ظهر هو الذى اختاره وما صح له هذا الا بعد مسودات ما يكاد ينضبط حصره وله غيره تآليف حسنة

وبعد فان الخالق تعالى وضع في أفراد من كل امة خاصيات وملكات قلما يشاركهم فيها كثيرون وآتاهم هبات يستخدمونها فى نفع البشر ونفوساً لا تعرف الملل لدرك مقاصدهم الشريفة . وكلما ارتقت الحضارة فى شعب ينبغ فيه رجال يصرفون على الافادة والاستفادة نقد اعمارهم ويتمحضون لاحسان الخدمة حتى لا يكادون يرون السعادة والملاذ والخير وكل ما تطمح اليه نفوس بنى الانسان من المعالى الا فيما هم بسبيله

ومن أنعم النظر فى تراجم نوابغ العلماء ودرس حياتهم حق دراستها لا يلبث ان يزول عجبه اذا شاهد كيف كانوا يستغرقون فى اعمالهم ويفانون فيما أخذوا به نفوسهم فيزهدون في المال والبنين ويفطمون أنفسهم عن حب المناصب والمراتب والزخارف والسفاسف

كنا ذات يوم نذكر لاحد اصدقائنا من الاطباء الذين صرفوا شطراً من حياتهم في الغرب اتساع التأليف فى هذه الامة قدي

فقال اما ما يبلغكم عن اكثر المؤلفين في الغرب اليوم عن كثرة المصنفات فليس لاكثرهم منه الا النذر القليل يكتبه لهم اذكياء المتخرجين بهم بعد أن يكونوا ثقفوا عنهم بعض ماله علاقة في الموضوع الذى ألفو فيه حتى اذا أتوا على آخره يدفعونه الى اساتذتهم فيجيلون فيه انظارهم ويمثلونه للطبع مفتتحا باسمائهم والمصنف منهم من يذكر أن تلميذه فلان اعانه فى التأليف وبعضهم يضنون بمثل هذه الاشارة

ولما أوردنا لصاحبنا اسماء كثير ممـا اشتهروا فى الاسلام وألفوا التآليف الممتعة الضخمة وعنوا وحدهم فى الاكثر بجمعها وتنسيقها وتصنيفها وتبييضها وتسويدها وان ما أثر عنهم كان مردوداً لو لم يرد على لسان اهل العدل والصدق من المؤرخين وعلماء التراجم وبعضهم قد يكونون من اضدادهم وحاسديهم — عند ذلك اقتنع صاحبنا بصحة رأينا وقال ان حال الافرنج اليوم يخالف حال سلفنا فان الافرنجي مهما بلغ من حبه الحكمة وتفانيه فى خدمة المعارف يقتطع له اوقاتا لراحته وادخال الفرح على قلبه لينشط الى متابعة السير فى عمله اما الشرقى فانه يفرط فيما تمحض له خلاله اما تعب ليس وراءه غاية او راحة ما بعد ورائها وراء

افتح اى كتاب من كتب التراجم ولا سيما تراجم اهل القرون الستة الاولى للاسلام تسقط على مبلغ عناية رجالنا بالتأليف

وتوفرهم على النفع وقد يظن ان معظم ماخلفوه من كتبهم هو ديني ولا اثر لهم فى العلوم الدنيوية ولكن هذا الظن لا يغنى من الحق شيئاً لان جماهير المؤلفين المجيدين لم يكونوا متمكنين من علوم الدين باغفال علوم الدنيا بل انهم كانوا يعتقدون بان العلوم باسرها نافعه فى الدارين وما تنفع في هذه الاولى كان خليقاً بان ينفع فى الآخري

هذا ابو محمد بن حزم الظاهرى واهل الظاهر نفاة القياس والتعليل وهو معدود في الطبقة الاولى بين علماء الدين ومع هذا تجد له تآليف ممتعة فيما نعتبره من علوم الدنيا فقد ذكر غير واحد من علماء الاندلس (١) ان تصانيفه فى الفقه والحديث والاصول والنحل والملل وغير ذلك من التاريخ والنسب وكتب الأدب والرد على المخالفين نحو من اربعمائة مجلد تشتمل على تقريب من ثمانين الف ورقه . وهذا شيء ماعلمناه لاحد ممن كان فى مدة الاسلام قبله الا لابى جعفر محمد بن جرير الطبرى فانه اكثر اهل الاسلام تصنيفاً فقد ذكر ابو محمد عبد الله بن محمد بن جعفر الفرغانى فى كتابه المعروف بالصلة وهو الذى وصل به تاريخ ابى جعفر الطبرى الكبير ان قوماً من تلاميذ ابى جعفر لخصوا ايام حياته منذ بلغ الحلم الى ان توفى فى سنة ٣١٠ وهو ابن ست وثمانين سنة ثم قسموا عليها اوراق

---

(١) المعجب

مصنفاته فصار لكل يوم اربع عشرة ورقة ومن جملة تآليفه التفسير الكبير والتاريخ الذى هو أصح التواريخ واثبتها وكلاهما مطبوع متداول وهو قال لتلاميذه : هل لكم ان املى عليكم كتابا فى التاريخ قالوا وكم يكون حجمه فقال ثلاثون الف ورقة فاستعظموا ذلك وارادوه على الاختصار حتى املاه عليهم في ثلاثة آلاف ورقة فجاء كما رأيناه اليوم احد عشر مجلداً ضخما املاه بهذا القدر وهو يحوقل ويقول ماتت الهمم لان تلاميذه لم يوافقوه على جعل تاريخه فى ثلاثين الف ورقة فماذا كان يقول لو جاء فى هذا العصر ورأى انحطاط علوم الدين وعلوم الدنيا بين قومه

وابن جرير فى اجادته فى التأليف واكثاره منه مشهور كسائر من تقدمه ومن تأخر عليه من المصنفين مثل ابن تيمية من اهل القرن الثامن فقد قال فيه احد مصنفيه (١) ان له من المؤلفات والقواعد والفتاوى والاجوبة والرسائل والتعاليق مالا ينحصر ولا ينضبط ولا أعلم احداً من المتقدمين ولا من المتأخرين جمع مثل ما جمع ولا صنف نحو ما صنف ولا قريباً من ذلك مع ان تصانيفه كان يكتبها من حفظه وكتب كثيراً

منها فى الحبس وليس عنده ما يحتاج اليه ويراجعه من الكتب . وقال غيره كان الامام يكتب فى اليوم والليلة من التفسير

---

(١) وفيات الوفيات

او من الفقه او من الاصلين او من الرد على الفلاسفة الاوائل نحواً من أربعة كراريس او ازيد وما يبعد ان تصانيفه الى الآن تبلغ خمسمائة مجلد وله في غير مسألة مصنف مفرد في مجلد وجمع بعض الناس فتاويه بالديار المصرية مدة مقامه بها سبع سنين في علوم شتى فجاءت نحو ثلاثين مجلد وقيل ان تآليفه تبلغ ثلثمائة مجلد .

ومثله أبو الفرج ابن الجوزى الواعظ مع علماء القرن السادس صنف في فنون (١) عديدة وكتبه أكثر من ان تعد وكتب بخطه شيئا كثيرا والناس يغالون في ذلك حتى يقولون انه جمعت الكراريس التي كتبها وحسبت مدة عمره وقسمت الكراريس على المدة فكان ماخص كل يوم تسع كراريس وهذا شيء عظيم لا يكاد يقبله العقل ويقال انه جمعت براية اقلامه التي كتب بها حديث الرسول فحصل منها شيء كثير وأوصى ان يسخن بها الماء الذي يغسل به بعد موته ففعل ذلك فكفت وفضل منها

ومن المكثرين من التأليف ابراهيم الهيثم الرياضي الطبيعي فقد عدد ابن أبي أصيبعه مصنفاته في زهاء اربع صفحات هذا عدا ماضاعت دساتيره منه لما فارق البصرة والأهواز وانتقل الى مصر قال : وما أظنها تنقص عن مائة مجلد ومثله الفارابي احد فلاسفة الاسلام كان مكثرا من التأليف وقد اضاع اكثرها لانه كان

(١) وفيات الاعيان

يكتب فى رقاع كيفما اتفق ويختار الفلاة ومجارى الانهار للتأليف فتطير الاوراق التى يكتبها

ومثلهما ابو الريحان البيرونى قال ياقوت : كان لهو يا اديبا اه فى الرياضيات والنجوم اليد الطولى ولما صنف القانون المسعودى اجازه السلطان بحمل فيه فضة فرده للاستغناء عنه وكان مكبا على تحصيل العلوم منصبا على التصنيف لايكاد يفارق يده القلم وعينه النظر وقلبه الفكر دخل عليه بعض اصحابه وهو يجود بنفسه فقال له في تلك الحال كيف قلت لى يوما حساب الجدات الفاسدة فقال أفى هذه الحال قال : ياهذا أودع الدنيا وانا عالم بها اليس خيرا من ان أخليها وانا جاهل بها قال : فذكرتها له وخرجت فسمعت الصراخ عليه وانا في الطريق قال ياقوت : واما تصانيفه فى النجوم والهيئة والمنطق والحكمة فانها تفوق الحصر ورأيت فهرستها فى وقف الجامع فى نحو الستين ورقة وقال بعض مترجميه : ان كتبه زادت على حمل بعير

والبيرونى احد كبار فلاسفة العرب يجيء في طبقة ابن سينا وابن رشد وابن زهر والفارابى ومثلهم الكندى فيلسوف العرب(١) وكتبه فى علوم مختلفة مثل المنطق والفلسفة والهندسة والحساب والارثماطيقى والموسيقى والنجوم وغير ذلك وقد عدد اسماءها ابن

---

(١) الفهرست

النديم في ست صفحات . ومثله ابو بكر بن زكريا الرازي صاحب المصنفات الممتعة في الطب والعلوم العقلية والادب وهو الذي استنار الغربيون لاول نهضتهم بمصنفاته واول ما طبع عندهم من تآليف العرب كتبه ذكر اسماءها ابن ابي اصيبعة في نحو سبع صفحات وابن النديم في ثلاث . ومن المكثرين من التأليف في عهد الحضارة الاسلامية حنين بن اسحق وثابت بن قره ويعقوب بن اسحق الكندي وقد ساق ابن ابي اصيبعة تآليف آخرهم في خمس صفحات وكلها كتآليف حنين وثابت فلسفية علمية وهم ائمة النقل من اليونانية الى العربية

ومن المكثرين من التأليف المجودين فيها حجة الاسلام الغزالي والماوردي وعمرو بن بحر الجاحظ وجار الله الزمخشري وهذان الاخيران من ائمة المعتزلة قيل في الاول ان تآليفه تعلم العقل وفي الثاني ان تآليفه يكتفى بها في التفسير والحديث والنحو واللغة وعلم البيان والادب . ومن المكثرين المجودين من ائمة المعتزلة القاضي عبد الجبار قيل ان تآليفه التي وضعها في كل فن اربعمائة الف ورقة ومن ائمة المعتزلة كثيرون من جاوزت مؤلفاتهم المائة والخمسين الف ورقة

ومن المؤلفين الاول المكثرين من التأليف هشام الكلبي العالم بالنسب واخبار العرب وايامها ومثالبها ووقائعها المتوفى سنة ٢٠٦

ذكر كتبه ابن النديم في نحو ثلاث صفحات وهي تزيد على مائة وخمسين ومنهم المدائني المتوفى سنة ١٥٢ في نحو اربع صفحات ومنهم المرزباني من اهل القرن الرابع قال ان تآليفه بلغت الوفا من الاوراق ومن الفقهاء والحفاظ المكثرين من التأليف محمد بن ادريس الشافعي وداود بن خلف الاصفهاني وابو العباس بن سريج المعروف بالباز الاشهب من ائمة الشافعية كانت فهرست كتبه تشتمل على اربعمائة مصنف وقيل ان تصانيف الحافظ ابي بكر بن البيهقي تبلغ الف جزء ولابي بكر بن الخطيب صاحب تاريخ بغداد المتوفى سنة ٤٦٣ قريب من مائة مصنف وللنسفي من كتب الاصول والفقه والحديث والادب والتاريخ ما يقرب من مائة مصنف وكان ابن سبعين ممن صنف تصانيف كثيرة وللاشعري خمسة وخمسون تصنيفاً .

وكان ابو حاتم البستي من اوعية العلم في اللغة والفقه والحديث والوعظ قال ياقوت (١) وكانت الرحلة بخراسان الى مصنفاته وروى عن ابن ثابت ان من الكتب التي تكثر منافعها ان كانت على قدر ما ترجمها واصفها مصنفات ابي حاتم محمد بن حبان البستي التي ذكرها لي مسعود بن ناصر الشجري ووقفني على تذكرة باسمائها ولم يقدر لي الوصول الى النظر فيها لانها غير موجودة بيننا ولا

---

(١) معجم البلدان

معروفه عندنا وانا اذكر منها ما استحسنت سوى ما عدلت عنه واطرحته وهنا عدها فجاءت زهاء مائتين وخمسين جزء وبلغت مصنفات ابي بكر بن فورك المتكلم الاصولى الاديب النحوى الواعظ قريبا من مائة مصنف. ولفظ المتكلم (١) تطلق على من يعرف علم الكلام وهو اصول الدين وانما قيل له علم الكلام لانه أول خلاف وقع فى الدين كان فى كلام الله عز وجل المخلوق هو ام غير مخلوق فتكلم العباس فيه فسمى هذا النوع من العلم كلاما اختص به وان كانت العلوم جميعها تنشر بالكلام ولابى الحسين الراوندى صاحب المقاله المشهورة فى علم الكلام وهو الذى ينسب اليه اليوم ظلما كل كلام فيه سفسطه ومغالطة وكفر من التآليف نحو مائة واربعة عشر كتابا مع انه لم يتجاوز الاربعين من عمره.

وراس المتصوفة محى الدين بن عربى تآليف كثيرة ومنها الممتع ذكر فى اجازة كتبها للملك المعظم انه اجازه ان يروى عنه مصنفاته ومن جملتها كذا وكذا حتى عد نيفا واربعمائه مصنف والف رسالة عددفيها كتبه كما جرت عادة بعض المؤلفين ان يترجموا انفسهم و يذكروا مؤلفاتهم فى رسائل خاصة مخافة ان يدس عليهم بعضهم مالا يروقهم ويقول فيهم ماليس فيهم.

وابن سعيد الاندلسى المؤرخ من المكثرين من التآليف

(١) ابن خلكان

منها المرقصات والمطربات والمقتطف من ازاهرا الطرف والطالع السعيد في تاريخ بنى سعيد والموضوعان الفريبان المتعددا الاسفار وهما المغرب فى حلى المغرب — والمشرق فى حلى المشرق — وغير ذلك قال لسان الدين (١) حدثني الوزير ابو بكر بن الحكيم انه خلف كتابا يسمى المرزمة يشتمل على وقر بعير من رزم الكراريس لا يعلم ما فيه من الفوائد الادبية والاخبارية الا الله تعالى

ومن المكثرين من التأليف لسان الدين بن الخطيب وابو العلاء المعرى ولهذا كتاب (٢) سماه الايك والغصون وهو المعروف بالهمزة والردف يقارب المائة جزء فى الادب قال ابن خلكان: وحكى لى من وقف على المجلد الاول بعد المائة من كتاب الهمزة والردف وقال لا اعلم ما كان يعوزه بعد هذا المجلد. ومن المكثرين القاضى الفاضل قال ابن خلكان . اخبرنى احد الفضلاء الثقات المطلعين على حقيقة امره ان مسودات رسائله فى المجلدات والتعليقات فى الاوراق اذا جمعت ماتقصر عن مائة مجلد وكان الحاجب المنصور أبو بكر محمد بن عبدالله بن مسلمة المدعو بالافطس اديباً جليلا ومن تآليفه (٣) الكتاب المظفرى المسمى بالتذكرة فى خمسين مجلداً

---

(١) الاحاطة في أخبار غرناطة
(٢) وفيات الاعيان
(٣) نظم الدول للسان الدين

وكتب عبد اللطيف البغدادي الفيلسوف نحو مائة وخمسين كتابا
وذلك في سياحات له طويلة دامت نحو اربعين سنة ساحها بين
العراق والشام ومصر والروم ومن المكثرين من التألف والمتوسعين
فيه احمد بن اباز بن السيد اللغوى الاندلسي يعرف بصاحب الشرطة
وهو مصنف كتاب العالم في اللغة نحو مائة مجلد مرتب على الاجناس
بدأ بالفلك وختم بالذرة وله في العربية واللغة كتب أخرى. ومثله
ابن سيدة الضرير صاحب المخصص والمحكم وغيره وهو من
المكثرين من التأليف والحفظ ومن المكثرين ابو اسحق ابراهيم
بن الاعلم البطليوسي له نحو خمسين تأليفا. وبلغت تآليف محمد ابي
طالب القرطبي المتوفي سنة ٤٣٧ — ٧٧ تاليفا وألف عيسى بن عمر
النحوى نيفا وسبعين مصنفا في النحوى قال سيبويه جمعها بعض
اهل اليسار واتت عنده عليها آفة فذهبت ولم يبق في الوجود سوى
كتابين ولو تنافس اهل العلم في هذه الكتب بمثل هذه الكتب لتعاورتها
الايدى بالنسخ ولما فقدت ومن المكثرين من التآليف عالم الاندلس
عبد الملك بن حبيب السلمي المتوفى سنة ٢٣٨ قال المقرى (١) رأيت
في بعض التواريخ ان تآليفه بلغت الفا ومن اشهرها كتاب الواضحة
في مذهب مالك. ولابي عمرو الداني القرطبي من علماء القرآن مائة
وعشرون مصنفا وكان يقول ما رأيت شيئا قط الا كتبته ولا كتبته

---

(١) نفح الطيب

الا حفظته ولا حفظته فنسيته وآخر من له التاليف الكثيرة من أئمة الاندلس ابو الحسن القاصادي المتوفي سنة ٨٩١ واكثر تصانيفه فى الحساب والفرائض .

وممن عرفوا بسعة التأليف احمد بن ابي عبد الله على مذهب الامامية فان ما كتبه بلغ مائة تصنيف عددها ياقوت في معجم الادباء . ومن فقهاء الامامية ابو النصر العياشى ذكر ابن النديم اسماء كتبه في نحو صفحتين . ويقال ان تاليف ابى جعفر بن النحاس تزيد على خمسين منها شرح عشرة دواوين للعرب وذكروا (١) ان محمد بن جماعة من اهل القرن الثامن كان اعجوبة زمانه فى العلم وليس له فى التأليف حظ مع كثرت مؤلفاته التي جاوزت الالف فان له على كل كتاب قراه التأليف والتأليفين والثلاثة واكثرها من شرح مطول ومتوسط ومختصر وحواش ونكت الى غير ذلك وكان يعرف علوما عديدة منها الفقه والتفسير والحديث والجدل والخلاف والنحو والصرف والمعانى والبيان والبديع والمنطق والهيئة والحكمة والزيج والطب والفروسية والرمح والنشاب والدبوس والثقاف والرمل وصناعة النفط والكيمياء وفنون أخر وعنه انه قال : أعرف ثلاثين علما لا يعرف اهل عصري اسماءها .

ومن الذين اكثروا من التأليف احمد بن مكتوم من اهل

(١) بغية الوعاة للسيوطي

بمثل صنيعه بل بما هو اقبح واردى فتروج بينهم بضاعه البذاله والسفاله وتنتشر على وجوههم امارات الشقاق والاختلاف يمسون متخاصمين ويصبحون متكافحين تحسبهم متحابين وهم اعداء وتراهم اخلاء وهم بغضاء وفى اليقين ان كل قوم كان هذا شأنهم تقل من بينهم موارد الراحه والرفاهيه ويفقدون معالم العز والسعادة وتعمهم اصول النقم والشقاوة

نقول هذا فى شأن الانسان مع ملاحظة قولنا من حيث طبيعته البشريه فان من تلك الجهه لافرق بينه وبين جميع الحيوانات لاغرض له سوى الشهوات البدنيه يطلبها من اى طريق تيسر بقطع النظر عن كونها توجب له حطه القدر اورفعه المنزله وسواء كان فى ذلك هدم مصلحه الغير اولا يعرف من الخير الاما يصل لذاته ولا يدرك الشر الا اذا وقع في حبائله وتكثر عثراته وتميل الى الشر خطواته وتنزل اقدامه من طرق الهداية وتهوى به اعماله الى مهواة الغوايه

ولا يمكن للانسان ان يتباعد عن تلك الأخلاق القبيحه والعادات الذميمه الا اذا تنورت افكاره وتهذبت اخلاقه بممارسة العلوم النافعه والفنون المتنوعه فيدرك الاعمال الخيريه فيلزمها وتبين له مفاوز الضلالات فيتجنبها

فان قيل كثيراً ماسمعنا مثل هذا القول من انه لو اجتهد

الانسان في تعليم المعارف والآداب لاعتصم عن فعل القبيح وسالك مناهج الرشاد وكانت اعماله خيراً مطلقاً وصالحة تماماً مع انا نشاهده على خلاف ذلك فانه اذا كان الغرض من التعليم هو معرفة الخير من الشر وذلك يكون كافياً في المقصود فقلنا قلما يجهل احد من الناس الضار من النافع والخبيث من الطيب فكلنا نعلم ان الحسد والكذب والكبرياء والنفاق والاختلاف والتخاصم والعداوة والبغضاء والمداهنة والمراآء وغير ذلك من الأخلاق القبيحة والصفات الرذيلة توجب لمرتكبها المقت والهوان والذل والبوار وتبعده عن درجة اهل الفضل والكمال وتحط به الى مواضع اللئام ودرجات الاشرار ولا يجهل ايضاً ان الصدق والامانة والعفة والصداقة والمودة والاخاء وتهذيب الخلق ولين الجانب وغيرها من الفضائل توجب الرفعة لصاحبها وتوصله الى موارد النعم والاجلال وتؤهله الى الانتظام في سلك العقلاء الراشدين والاذكياء المتقين ومع ذلك لم تفدنا تلك المعرفة شيئاً من هذا فانا نرى الناس لا ينزجرون بما يسمعونه من المواعظ البديعة والحكم البليغة بل هم يعملون على ما تقتضيه شهواتهم الذاتية لايحترمون شريعة ولا يوقرون قانوناً حتى انه يمكننا أن نقول أن بسطاء الفكر وسذج الاخلاق اقل قبائح من سواهم انظر الى الاشخاص المتميزين بالاعمال الشاقة كأرباب الزراعة والحياكة والتجارة الذين تشغلهم تلك الاعمال عن مخالطة سواهم من الناس

تراهم مجردين من المكر والخداع والنفاق والمراء تنطق طبيعة الرجل منهم بما يختلج فى صدره من غير تدليس وكذب أو تمليق وبهتان وان دعته مصلحته للتكلم بشىء من هذا لا يجد لسانا يساعده على التنميق والطلاء أو الخلابة والدهاء لا يقولون بغير ماتكنه أفئدتهم ولا يوالون من لاتألفه نفوسهم وهذا مع محافظتهم على ماوصل اليهم من أحكام الشريعة الغراء يؤدونه مع البعد عن الرياء والنزاهة عن الكبرياء واذا نسبتهم الى الاشخاص الذين نعدهم فى عرفنا أقرب الى التمدن وأعرف بمذاق الاداب لما عندهم من الفرص التى تمكنهم من داخلية القطر من البلاد يسيرون اخلاق مجاوريهم وتعلق بافكارهم بعض الحوادث ويشوقون الى مطالعة بعض الصحف يستنشقون منها الاخبار والقصص رأيت من الفرق بين الفئتين ما ينفرنا من الاجتماع البشرى ويزهدنا فى استكمال اسباب الحضارة والعمران ويحملنا خلفا اسذاجة اهل البدو والمغارات لما نراه من نتيجة الاختلاط والاجتماع التى هى المنافسة فى المواربة والخلابة والتفنن فى أساليب القذح فى الاعراض وانتهاك حرمة الشريعة بانتحار فى فعل الموبقات التى تمجها الطباع السليمة وتأنف منها الانفس الأبيه الشريفة ثم اذا حولنا النظر الى الاشخاص الذين درسوا العلوم والفنون النافعة كما تقولون رأينا

الخطب اعظم والشر أوفر فانهم عوضاً عن صرفهم ما حصلوه زمن التعليم والدراسة من الفكر القويم والدراية الواسعة الشعوب فيما يعود على انفسهم بالكمال حتى ترتفع منزلتهم ويعلو صيتهم وعلى وطنهم بالرفاهية والعمار والتقدم والانتظام تراهم يصرفون ذلك فى سفاسف الاعمال وقبيح الخصال فلا يكون له التقدم على غيره من الذين لم يطالعوا الكتب ويتصفحوا التواريخ الا يكون اعرفهم باساليب الخداع والمماراة واشدهم كمالا لحفظ الضغائن والاحقاد يلاقى بغيضه ببشاشة وجه وطلاقة لسان يعرب فى الظاهر عن مودة واخاء ومحبة وصفاء مع أنه يتربص به الذلة ويسوقه الى بحر الحتف والمنون وهذا فضلا عما يعتريه من الكبر والخيلاء ينظر الى الناس بعين السخرية والاستهزاء والنقيصة والازدراء لكونهم لم ينالوا ما عنده من الخبث ولم يدركوا ما أصابه من المقت فاذا كان هذا ما نشاهده فى أخلاق ذوى الحذق والدراية والكياسة والنجابة فدعنى أيها الواعظ سالكا مسلك ذوى البله والبساطة قاطنا فى أحياء العشائر المتقشفة استنشق الارواح النقية واستجلب من الفلوات ثمار بقدر ما تقوم به بنيتى مما تقدر المعدة على هضمه وتكون فى امن من خطره أظن ذلك اقرب الى السلامة من مخالطة اهل العمران والدخول فى حوزة ذوى العرفان

نقول جوابا عن هذا الماذكرته من أن الغرض من التعليم هو معرفة الخير من الشر فهو المراد ولكن قولك قلما يجهل أحد من الناس

الضار من النافع الخ. فغير مسلم لأن المراد من المعرفة استكناه تلك الاخلاق وادراكها ادراكا صحيحا مع الجزم الثابت بالدليل بخواصها وليس ذلك بالامر اليسير او الخطة الهينة والاشخاص الذين يرددون تلك الصفات زاعمين المعرفة بحقائقها فذلك لما يرونه بأنفسهم من التأثر عندما يحقدون او يرمون بذور أو تصل اليهم يد المعروف ولربما ذكروا ذلك تقليداً من غير شعور مطلقا بالمنفعة أو المضرة وعلي الحالتين فبينهم وبين المعرفة الآن شرحناها بون بعيد ثم لا ننكر عليك بعض ماذكرته من اخلاق الذين تعلموا العلوم ودرسوا الفنون ولكن ينبغي ان يعلم ان ذلك مااعتراهم الا من اختلال طرق التعليم وعدم التربية فان الانسان اذا كان يميل بطبعه الى الشهوة الحيوانيه ومعلوم انه في حال صغره يكون مجرداً عن الملكات خيرها وشرها غير شاعر بمضار مايرتكبه من الاخلاق الدنيئة وغيرها آسف على مالم ينله من الآداب ومكارم الاخلاق فتسوقه الطبيعة الحيوية الى مواردها من غير تفكر أو تعقل فيما ينجم عنها من القبائح والدناءات وتتعودها الجوارح والاعضاء حتى تصير ملكة للنفس وتحور الفكر وتتخاط في تلك الحالة الطبيعية على القوى العقلية لتستخدمها في تدبير تلك المصالح على الوجه المألوف لها فاذا اشتغل الانسان في تلك الحالة بمطالعة العلوم النافعة وتعليم الآداب المهذبة نمت قواه المفكرة وتفرغت مداركها ولكن في حالة السطوة لجيوش الطبيعة نتقسرها

على مجاراتها واتباع مسالكها مع العلم بخباثتها ووخامة عاقبتها وتأبي الافكار الى الاقلاع عن تلك الخطة الذميمة لما فيها من المضار المتنوعة والبلايا الكثيرة فيقع التضارب والتجاذب بين هاتين القوتين فاذا استكملت معدات الادراك وتحصنت بمتاريس الكياسة والرشد جبرت الطبيعة على مطاوعتها والدخول تحت قدرتها تحركها جهة الكمال وتوجهها الى قبلة الرشاد تأمر بالمعروف وتتجافى عن المنكر تعلم الخير فتطلبه وتسعى فيما يعود على العموم بالعمار والرفاهية والتقدم وتطرح عن كاهلها حب الاثرة والاغراض الشخصية فتلك الفئة هي التي نجحت بثمرات التعليم ونتائج المعرفة اما اذا انتصرت جيوش الطبيعة وبددت جموع الافكار انقلبت العلوم مشعوذة والفصاحة سفسطة ولا شك أن الجاهل البسيط أقل ضرراً وأخف أذى ممن أصيب بسهام الطبيعة مع مراجعة الفنون وتصفح كتب العلوم فان هذا اوسع اداركا لابواب الانتقام وأتقن وعاية لطرق الضلال فاذا كانت تلك العصابة هي التي نويتها فى مقالتك ايها المعترض قبلت منك ما عربته لها ولكن ذلك لا يقدح فى المطلوب فانهم اذا اتقنوا علم الرياضات والطبيعيات وغيرهما من العلوم الصناعية النافعة فى بابها فذلك لا يفيد النفس من حيث التهذيب فى شيء بل غايتها التبحر والتفنن فى العالم المادى ومعرفة عناصره وخواصه ومرادنا من العلوم علوم التربية والاخلاق فاذاً لا اقبل منك اختيار البله

والجلوس على بساط الجهل لذلك فانى آتيك بما تتقى من الضير ويبعدك من تلك المخاوف ويحببك فى جنى ثمار العلوم والتسابق في ميدان الفنون الا وهو الاعتناء بتربية البنين والبنات فى حالة الصغر زمن البساطة والسذاجة فانهم يومئذ طوع اليد يذهبون معك الى أى طريق أحببت ويدخلون معك من أى باب قصدت ولا تجد منهم عناء ولا نصبا ولا ممانعة ولا غضبا يشيعونك كظلك ويطيعونك كظلك فرنهم على الاخلاق الجميلة والصفات الحميدة ودربهم على مافيه شرف النفس ونزاهة الاعمال واياك أن تدعهم يأتون قبيحا أو يلفظون بسوء متوهما ان ذلك مباح لهم حيث لم يناطوا بتكاليف ولم يدخلوا تحت شرائع التأديب فان ذلك ربما لزمهم بعد الكبر فاذا تعهدتهم كما ذكرت لك والقيت اليهم بعض المطالب الاولية والمقدمات البديهية من النصائح والحكم يشبون على تلك السجايا العالية والطباع السليمة ثم ابعثهم الى مناهل العلم وموارد الحكم يتغذون لبانها ويتوشحون بردائها فينتفع الوطن بمهارتهم وتفننهم فى الصنائع العظيمة القيمة الجزيلة الفائدة وينشرون فى انحائه رايات التمدن والاصلاح والثروة والفلاح مع طهارة الذيل وبعد الهمة وثبات الجأش فاذا كانت هكذا أبناء الوطن لاغرو ان تخفق على رؤسهم ألوية السعادة هناك يفوزون من الامة بالشكر الجزيل والفضل العميم

غوائل الفقر

كثيراً ما سبب أضراراً ونشأت منه شرور أخلت بالفضائل الخليقة ودعت الى ارتكاب المذموم وعادت على الهيئة الاجتماعية بالوبال فحرمتها التقدم ونقصت من عدد افرادها فضعفت قوتها وعجزت عن نيل المرغوب ولم تقو على دفع المرهوب

يصاب الفقير بداء يرتفع باقل دوآء فيقعده العوز عن استدعاء الطبيب وطلب الدواء ويعنيه المرض من التماس القوت فيجلس بين علة تقرض لحمه ومخمصة تمض بنابها حشاه ولا يلبث حتى يموت وتتوق نفسه الى اجتناء أزهار الفضائل من أكمام المعارف والاقلال واقف فى طريقه يسد كل أبواب الوصول عليه فلا يجد ما ينفقه على التعليم ولا ما يتقوت به مدة التهذيب فيقف بحسرة تذيب فؤاده ونقائص تغالبه بقوة لا يجد لها من دافع فتستولى عليه وتتمكن من ذاته حتى تصير ملكات ثابتة كلما تقادم العهد تقوت أصولها وزادت رسوخا . وعلى فرض ان ينال بعضا من العلم فلا يتمالك ان يحفظه ولا يستطيع البقاء عليه لتشتت أفكاره وتفرق باله واشتغال خاطره بأداء ما تطالبه به الطبيعة من قوت يقوم بنيته ويردجوعه

مع تقطع الاسباب به و بعد الوسائل عنه فيتناقص ادراكه ويضعف إحساسه لوقوف مددهما من العلوم وتذكارها والفنون ومدارستها مع توجههما لأمر يكفل وحده حلول الوهن وحدوث النقص بهما ويلزم باداء دين وجب فى ذمته نيرتكب فى نفيه عنه كل مذمة وينتحل كل بهتان وزور ويحسب انه يرفع من اثقاله ويخاف بعض ماوجب عليه

ومن هنا اتضح أن الفقر موجب للنقص فى الانفس والأبدان ومضر بالعلم والأخلاق وهو بذاته نقص فى الاموال فقد أجتمع فيه جميع المضرات واشتمل على أصول المهلكات ومن ثم قال الشاعر

غالبت كل شديدة فغلبتها   والفقر غالبني فأصبح غالبي
إن أبده أفضح وإن لم أبده   أقتل فقبح وجهه من صاحب (١)

وانا لو تبيناه من حيث أسبابه الموجبة له والداعية اليه لوجدناه على نوعين: أختيارى وقهرى. ونعنى بالاختيارى مايكون للانسان دخل فيه ، ونريد بالقهرى ماخالف ذلك وانما حدث بحكم المقادير وهذا لاكلام لنا فيه وانما الكلام فى النوع الاول وهو ما كان لاختيارنا دخل فيه ولقدرتنا قوة على درئه اذ باجتلابه نذم ونلام وبالتباعد عنه نحمد ونسعد ونرتاح من أوصاف الاعمال البدلية

---

(١) هذان البيتان نظم ماقاله على كرم الله وجهه : (مارست كل شئ فغلبته وماست الفقر فغلبنى لانى ان أذعته فضحنى وان كتمته قتلني)

وقلق الافكار المضعفة وتفرع لتنمية الاذهان وتربية النفوس
وتطهيرها من دون الاخلاق الخبيثة الموجبة للعذاب السرمدى
والتألم الأبدى وتحليتها بالفضائل الجميلة الداعية للسعادة الدنيوية
والبهجة فى الدارين وأغلب ما ينشأ ذلك عن الكسل والبطالة
واهمال الصنائع والحرف الرفيعة وترك الاشتغال الجلية النافعة
فان الكسب وقف على سبيل الاعمال وقد جعل الله بازاء كل حاجة
كسبا مخصوصا لاتسد الا به فاذا لم يكن عمل امتنع الكسب
وقامت الحاجة تطلب بما يسدها وعن التساهل فى حفظ الوجود
بالاسراف فيه والانفاق منه زيادة عن القدر المطلوب حتى يتسارع
اليه الفناء ويذهب فى أقل قليل من الزمن وعن مطاوعة الشهوة
فى كل ماقضت به فانها تقود المرء الى ارتكاب أمور تتولد عنها
لوازم توجب عليه نفقات وتكلفة بتكاليف لايستطيع النهوض
باعبائها ومن هنا يعمد الى القبائح يفعلها والمحرمات يأتيها بدون
مبالاة أو مداراة ظنا منه بان ذلك يخفف عنه ماحمل عليه وذلك
مثل كثير من ضعفاء العقول فى بلادنا المصريه فان الواحد منهم
على ما به من قلة الكسب وضعف الهمة تحمله الشهوة على أن
لايكتفي لواحدة من النساء بل ان كانت تحبه واحدة منهن طلب
ثانية وان كان لديه اثنتان رغب فى ثالثة وهكذا حتى يبلغ منهن
عددا لايبيح له الدين الزيادة عليه فيترك واحدة ويطلب أخرى

الى أن يعوزه التبادل وكثرة الاولاد ويبقى مطالبه بصداق المفارقة ونفقة المعتدة ومؤونة الباقية ولوازم الاولاد حالة كونه لا يستطيع الى آداء شيء من ذلك سبيلا فيتخذ كل وسيلة مذمومة لرفع هذه المطالب عن كاهله بان ينكر صداق زوجة فارقها أو يرمي بولده في الطريق لتلتقطه المارة أو تأكله الوحوش أو يودعه عند من لا يهمه شأنه ولا يعتني بتربيته فيتربى على الخسة ويشب على الدناءة أو يستعمل السرقة واختلاس أموال الناس حتى يصيب منه ما يكفيه ان كانت له قدرة على ذلك. فهذا الشخص قد أضر بنفسه وبجملة نفوس وجلب الفاقة عليه وعلى كل من تفرع عنه أو دخل في حوزته وانتمي اليه وأنه لمستحق لكل اللوم والمقت اذ هو الذي قلع بأصبعه عينيه وأورد نفسه موارد الفاقة وأوقعها في شرك الاحتياج الداعي الى كل هذه المضرات وقد كان في بعد عن جميع ذلك لو اقتصر على الواحدة ولم يطلب سواها وكذلك ترى بان منهم من يكون عديم الكسب رأسا لا يستطيع أصابة القوت لنفسه فضلا عن غيره ومع ذلك يدعوه الجهل الى أن يضم اليه امرأة لا تلبث معه أن تأتي منه باولاد ثم تسوء معاملته معها ويكثر النزاع بينهما حتى يفضي الحال الى التفارق فيلزمه الشرع بنفقة الاولاد ومن المعلوم ان ما يكفي الجماعة مجتمعين لا يقوم بها حال الافتراق فيشتد الامر عليه ويستطيع القيام بما ألزم به فلا يجد اليه سبيلا

الا الفرار من بلدة الى بلدة أخرى فلا تناله فيها العيون ويترك أولاده يتضورون جوعا أو يقتل الاولاد ويستريح مما كلفوه به. ومن ذلك مافعله بعض السفهاء فى مدينة رشيد حيث اشترى جوهرا مسما من أحد العطارين بذلك الثغر وأطعمه بنتيه تخلصا من نفقة وجب اداؤها عليه لهما مدة بقائهما عند والدتهما المطلقة ومقدارها لا يتجاوز الاربعة غروش ونصف فى كل يوم وترتب على ذلك ان ماتت احداهما فحكم عليه مجلس الاستئناف بالاقامة فى ليمان اسكندرية مدة خمسة سنين لاعترافه بذلك وخفف عليه العقاب لكون والدة البنت تنازلت عن دعواها شرعا وسياسة وحكم هذا المجلس أيضا على العطار الذى ادعى المشترى انه ابتاع هذا الجوهر منه بالاقامة فى سجن المحافظة خمسة وأربعين يوما وان لم يعترف بذلك ولكن حيث انه خالف الاصول وباعه بدون أخذ ضمانة حكم عليه المجلس بهذا الحكم (هكذا ورد لنا من مجلس الاستئناف بدون ان يبين وجه ثبوت الجناية على العطار فلعله قامت عنده دلائل اخرى غير الاعتراف)

وكل هذه الاسباب التى ذكرناها للفقر اختيارية فى طاقة الانسان التباعد عنها ودفعها. فمن السفه وضعف الرأى الاقتراب منها واجتلابها بعد تبين نتائجها ومالت اليه بل من العبث اعتناقها واطراح اسباب الكسب والتقاعد عن السعى لاصابة الرزق من مواد الصناعة لاسيما فى بلاد كثيرة الخصب رائجة الاسواق متوفرة

وجوهه القانونية مرتفع بها مقام العلوم ومنار المعارف كبلادنا المصرية

وليس سعى المرء لالتماس العيش والتشبث باسباب الغنى ودفع ملمات الفاقة مما ينافى توكله متى كان يعد الاسباب ويهيء الوسائل معتقداً بان التأثير كله لله جل وعلا ولهذا قال صلى الله عليه وسلم رداً على من قال اطلقها متوكلا على أعقل وتوكل (أى هيء ماتقدر عليه من أسباب الحفظ وبعد ذلك سلم الامر الى الله) ومن هنا حرمت العلماء على الشخص أن ينقطع عن الاعمال معتقداً بان الله يرزقه بدون أن يعد سببا أو يتشبث بوسيلة . وحكم حجة الاسلام الغزالى فى كلامه على مواضع الرجاء بحمق من يلقى بذرا فى أرض لاتقبل الزراعة ثم يرجو أن يخرج الله منها نباتا. وبالجملة فان الكسل والبطالة والاسراف والتبذير واتباع اللهو والاسترسال فى الشهوات كل هذه الامور موجبة للفقر والفاقة مذمومة على لسان كل شارع منهى عنها فى كل شريعة وقانون وصاحبها كلها أو بعضها شقى فى الدنيا معذب فى الآخرة وان العمل والصناعة والاقتصاد ومخالفة دواعي اللهو وغيرها مما يدفع عاديات الفقر أمور مأمور بها واجبة شرعا وعقلا على كل فرد فى كل وقت محمودة على كل لسان وذوو هاهم السعداء الفائزون بالسعادتين والمبتهجون بالنعيمين فهم فى الدنيا أرباب مجد وفى الآخرة أصحاب سعد

المومسات

للطيب الذكر المرحوم الشيخ نجيب الحداد

المرأة البغي خلقية ساقطة دفعتها يد الفقر نفس كانت نقية طاهرة فزاياها العفاف والطهر وثمرة كان يرجى منها الصلاح والخير فاسدتها حوادث الدهر . بل هي ريشة حمامة بيضاء نثرتها عاصفة الايام وشعرة سوداء كانت تزين هام صاحبها قبل أن سقطت عن الهام . فاصبحت شيئاً قذراً تعافه ايدالمتناول وتدوسها الاخفاف والاقدام . فهي كائنة حية ولكن كأنها ليست من الاكوان . وانسانة كاملة الخلق تسير في طريق الانسان فيزدريها كأنها لم تكن من الانسان . بل هي نفس فسدت فعافتها صالحات النفوس وخمر صيرها الدهر خلا فلم يعد لها نصيب من الكؤوس . وصورة خلقت لتزين صدور المجالس فأصبحت لا تستحق مقام الاعتاب . وزهرة ناضرة رمتها الايام عن غصن الانسانية فاضحت ملقاة على التراب وسجية أنشئت للحية والادب فتبرأ منها الحياء وأنكرتها الاداب . ووجه براه الله ثم ستره بنقاب الوقار . ومقلة كانت تغضي حياءً وعفة قد زانها لاطراق والانكسار . وجبين كان يؤثر فيه النسيم رقة ولطافة لجماعة بلبلا يأتي فيقف على الشجرة فوق رأس الشيخ وينتظره

حتى يفرغ من الصوت فيأخذ في التغريد الشجي مدة ثم يطير فيغيب قليلا ثم يعود فيغرد كما كان ولما طال امره وفطن له الجميع احب احدهم أن يعرف الى اين يذهب ذلك البلبل ثم يعود فراقبه وهو طائر حتى رآه وقع على شجرة رمان بالقرب منهم ودنا من رمانة وجعل يمد منقاره اليها ثم يرفعه فصعد الرجل الى الرمانة فوجد الطير قد نقرها حتى أفرغها وجاء بحبات من العنب فوضعها فيها حتى تخمرت وجعل يشرب منها ويسكر كما رأوه وهو نهاية العجب في سكر الحيوان واختراعه للمسكرات . ولعل السبب في ذلك أن البلبل كان يأكل من العنب فيشعر بنشوة وطرب فعلم على التمادى ان ما يصيبه من تلك النشوة انما هو من عصارة العنب فسعى الى أن يستخلصها وحدها من القشر فلم يجد لديه سوى هذه الطريقة من تجويف الرمانة يخزن العنب فيها ثم يشرب عصارته فقط تقريبا على نفسه من مسافة السكر فسبحان الخلاق العظيم

ولقد ختم ذلك الطبيب بحثه عن سكر الحيوان بحكاية غريبة في بابها رواها عن سمكة سكرت فقال ان بعضهم كان عنده سمكة في بركة فجعل يشرب مع أصحابه ويلقي فضلات الكؤوس في تلك البركة والسمكة تشرب منها حتى سكرت ثم زاد بها السكر حتي أصابها مثل الجنون فدارت في الماء مدة

ثم أقبلت وصدمت رأسها بشدة فى جوار البركة فماتت شهيدة الخمر وذلك من غرائب المسكرات

وتكاد تجرحه الانظار . فمضى ذلك الوجه ما كان عليه من برقع الحياء وارتفعت تلك المقلة من أطرافها وانكسارها فلم يعد فيها خجل ولا استحياء وصاب ذلك الجبين على الابصار فما يلين لناظر ولا يندى بماء

تلك هى البغي تتناول حاجاتها من غير يد الشرف وتسير فى مجاهل حياتها على طريق الانسانية وتجنى ثمار وجودها من غير اغصان الحلال وتزين رأسها من جواهر البغاء بما كان دماً على حالها فى جفن الآداب والعفاف وتبرز للناس من حليها وحللها بما يظهر فساد النفس ويكشف عوار الاخلاق وتبدي للعيون من زخرف جمالها ما تنكره النفس والقلب وتتقرب الى كل انسان بما يزيدها بعدا عن منزلة الحرمة والجلال فهي تريد ان تعلو بظاهر الزخارف والزينة فلا يفيدها ذلك سوى ان تسفل فى حقيقة الحال وتحاول ان تكتسب بجمالها عزة الحسان فلا تلقى سوى المهانة والاذلال وقد عرفت ان الرجل يخدعها بما بيديه لها من تقربه واقباله فجعلت تخدعه مثل ذلك بما تظهر له من زيف ودادها وما تأخذه من عيون مواله وقد ساوته بالوصمة والعار بما اشتراه من وصالها وما باعته من صاله صفقة خاسرة على المتعاقدين جميعاً فما ربحت من ابتذالها

ولا ربح من ابتذاله

ونحن لانلوم المرأة الساقطة فى هذه الوهدة السافله لاننا لاندري تحت أي ثقـل سقطت ولا اية يد من ايدى الاضطرار والحاجة دفعتها الى هذه المهواة البعيدة والحالة الدنيئة فهوت مرغمة مضطرة تحت عوامل الفقر او تحت حوادث الايام وكوارث الدهر فانما هي نقطة ندى صافية علقتها يد الصباح على غصن زهر يانع فما زالت يد الحوادث تهز ذلك الغصن وريح المصائب والفتن تعبث بتلك النقطة النقية الصافية وهي تمسك بالغصن حتى غلبتها جاذبية الاضطرار وفصلتها عوامل الاقدار فسقطت على التراب مهانة صاغرة بدلا من ان يرشفها فم الفجر بشفاه الشمس والنسيم وأصبحت وهي طينة سوداء وحمأ مسنونا بعد ان كانت من بهاء النور فى مثل تألق الحجر الكريم. وانما اللوم كل اللوم على البعض من شباننا الادباء الذين أقبلوا على هـذه المفاسد المضرة والدنايا الشائنة لايخشون منها عاقبة ولا يحرصون فى جنبها على شرف ولا دناءة نفس. وعهدنا ان الفتى منا ليأنف ان يشم الزهرة من الورد يرى صديقه قد شمها قبله وان يشرب الماء من الكوب يكون غيره قد شرب منه امامه مع انها مسالة لايدخل فيها غير حاسة هي حاسة الشم او الذوق فكيف يحتمل الشاب المترف الاديب ان يقبل على إمرأة من هذا القبيل يشترك فيها كل حواس نفسه وجسده وهو

يعلم انها لعبة كل فتى ومورد كل طالب وعلالة كل سفيه وانها لم تصل اليه الا بعد ان تجاوزت الناس قبله ولعبت بها ايدي ألوف من الرجال دونه وانه بعد ذلك لا يرد منها على ادب ولا يأنس منها الى لطف ولا يشعر في جنبها بشيء من مودات النساء واطف الغزل وانها امامه آلة صماء لا تقع نفسه منها على عاطفة وداد ولا تقع عينها منه الا على موضع الدرهم والدينار وبئست تلك صحبة ينفر منها من الانسان سوى الحيوان ذلك فضلا عما يكون في تلك المرأة من الامراض المعدية والادواء الخبيثة القتالة التي يلهو بها الفتى ساعة في سكرة طيشه وصباه ثم تعقبه ندامة الأبد وبلوى العمر وضياع الصحة وفساد النسل وسوء الاحدوثة والذكر وخطر الموت العاجل والانحطاط السريع وما تبع ذلك من بلايا المرض وعوادي الاعتلال والسقم ولا سيما في هذه الامراض النسائية التي لا يخجل المرء من بيان مرضه الا بها ولا يستر اعتلال صحته عن الناس الا فيها وكل مريض يشفق عليه اخوانه ويرثى له صحبه والسامعون به الا مريضها فانه لا يجد الا عبارات الطعن بدل الرحمة ولا يقال عنه سوى المذمة والقدح بدل الرثاء والشفقة ولا يكون عرفان دائه الا سببا للملامة والتعنيف عوض الأسف والتعزية. ثم اذا ارتكب جريمة الزواج بعد ذلك جاء اولاده سقماء الأبدان ضعاف البنية مهازيل الجسوم لا يشعرون بحلاوة العيش الا وهي

مقرونة بمرارة الاسقام والاوجاع والحمية والمداراة وقد جنى عليهم ابوهم وما جنوا على أحد ولحقت امراضهم وعدوى ابيهم الى امهم البريئة المظلومة التي ذاقت عواقب زوجها وشاركته في بلاياه وعلله فيما لا تشاركه به من سابق لهوه وسروره وهي لاشك جريمة كبرى ليست جريمة القتل باعظم منها لان جاني القتل باعظم منها لان جاني القتل يجني على واحد ثم يلاقي عقابه وجاني هذه الجريمة يجني على نسل بأسره ولا عتاب له ولا جناح عليه سوى ما تنزله عليه الطبيعة في نفسه وابنائه فيجني على نفسه وابنائه فيجني على نفسه وعلى سواه .

ولقد يقول البعض ان هؤلاء المومسات سياج الحرائر بمعنى انهن يصرفن الشبان عن العبث بالمصونات الى العبث بهن فتصان بذلك الانفس والاعراض ولكن فاتهم ان أولئك البغايا اذا كن سياجاً يمنع الشر عن ربات الجمال فهن سياج ايضا يمنع الخير عن الفتيات والعازبات اللواتي قضى عليهن الدهر بالقعود في منازلهن لينال غيرهن من النساء من هو نصيبهن من الرجال وما هو مكتوب لهن من عيشة العفاف وراحة الزوجية ولذة الاقتران والائتلاف . فيا حبذا لو تأمل شباننا في عواقب ما يقدمون عليه من هـذه الشؤون الفاسدة واخـذتهم في هؤلاء المومسات عزة وانفة الشباب ان لم يأخذهم غير ذلك

من خوف العقبى وسوء المصير فرفعوا هممهم الى فتاة طاهرة النفس نقية القلب وافرة الادب طيبة الاخلاق فقضوا فى صحبتها هذه الحياة تشاطرهم اكدارها وتزيدهم من محاسنها وتعقب لهم ما به قرة العين من الحياة الدنيا فى مال أو بنين ولو لم يكن للفتى من هذه القرينة الا صيانة النفس ووقاية الجسم ومراعاة الادب وتوفير المال لكفاه العقبى الصالحة والعيشة الوافية والسلام

الفتى و البغى

يخرج الفتى عندنا من صفوف مدرسته ومقاعد اترابه فيحسب انه بلغ قمة الكمال وأدرك غاية المسمى وانه اصبح رجلا مستقلا تجرى سفائن رغباته على بحر الحياة مرخاء الحبال مطلقة الشرائع فتنفتح عينه لنور الاستقلال ويتسع صدره لنسيم الحرية والمراح ثم يلتفت حوله فيرى تيار الشبيبة مندفعا الى نوادى القمار او حانات الاقدار ويرى الفتيان من جانبه تتهافت افواجا الى مغازلة الحسان ومعاقرة بنت الحان فيجرى مع ذلك التيار مندفعا بشدة تلك الامواج من جانب وبما ركب فيه من طبع اللهو وخفة الشاب من جانب حتى يتوسط ذلك اليم الواسع الذى هو بحر الملاهى والغواية فلا يجد منه ساحلا يأوى اليه ويغيب عنه شاطىء الطهارة الذى ابتعد منه فلا يعود يقدر ان يرجع اليه فيصبح رجلا ولكنه يستخدم الرجولية فيما يعود عليه بالخسران والوبال ومستقلا ولكن استقلال السفينة التائهة بين عواصف الانواء فى موج كالجبال

ولقد يعذر الفتى يتعاطى الشراب ويعاقر كؤوس الراح انه

يجد فيها نشوة السكر ولذة الشباب وزهو الحياة واحتقار الدنيا وهو يحبها واستصغار العالم وهو يجل ملذاته وملاهيه وانكشاف اسرار الطبيعة له من وراء زجاج الكاس وظهور خفايا النفس ماثلة امام الشراب وانه يشترى بماله لذة وينفق ساعة شربه على ساعات لهو وسكر ويخرج من الحانه يجر الذيل تيهاً ويصعر خده عجباً وهو يعتقد انه ابتاع الكثير من السرور بالقليل من المال فى هذه الحياة الدنيا التى لايشترى فيها الدرهم من المسرات الا بالقناطير من الاموال

واقد يعذر الشاب بجالس حسان الحانات وبنات الشراب مجالسة ضحك ومزاح فى حديث لهو وفكاهة انه بذلك يظهر جوهر عقله و يجلو صفيحة فكره ويطلق عقلة لسانه ويطرب من حديث جليسه كما يطرب جليسه من حديثه اذ ليس افتق للسان وابرز لمكنونات الصدر واجلى لعواطف الوجدان وابين لمحاسن الكلام ونوادر البداهة والفكر من حديث النساء ومسامرة الفتيات فى مجلس صبابه وطرب ونوادى فكاهة وحرية مجال فهناك تخرج الكلمة بنت ساعتها وتلقى العبارة والنكتة على بداهة قائلها ثم ينصرف اصحابها وقد تركوا وراءهم كل ما كان وخاص كل منهم الى منزله ولم يعلق بفؤاده شىء مما كان يلقى حوله من حبائل الشيطان

ولقد يعذر الفتى على الانفاق والتبذير انها لذة لا تعرفها الا نفوس الكرام ولا تشعر بنعوتها الا انامل السخاء . ولقد يعذر ايضاً على بعض العاب المقامرة انها سلوة النفس فى اوقات فراغها وصورة الدنيا فى اختلاف سعودها ونحوسها وملعب القلب يشهد على الرواية الغريبة فى تغيير مناظرها وانقلاب شؤونها بين الانقباض والانبساط والحزن والسرور

لقد يعذر الفتى فى كل ذلك انه يسعى اليه ومعه عقله وينال المسرة فيه وهو يعلم من أى باب ينالها ويضحك على الخمر فى شربها وهو يعلم انها ستضحك عليه عند سكره ويغازل فتاة الحانه مازحا وهو يعرف انها تمزح معه فى مغازلته ويخسر فى المقامرة او يكسب وهو يعلم من أين يأتيه الربح او الخسران ولكن ماعذر الشاب الاديب وقد ملأ راسه علما وحشا صدره حكمة وافعم فؤادة ادبا ودرسا ووقف على امور الدنيا بين دفتي كتابه ورسم حقائق العلم والعرفان على صفحات قرطاسه ثم يجلس الى المرأة المومس والفتاة الغي مجلسا تشترك فيه بنت البغاء الجاهلة مع علمه الواسع في التجربة منه والضحك عليه ويقف فيه بين يديها موقفا مضحكا لا يعذره عليه معقل ولا يعينه فيه الادب والعلم ونحن نصورهنا على قدر مايسمح به المقام تبصرة لفتياننا الادباء وفكاهة للقراء الكرام

ذلك ان يتصور القارىء حانة منفردة او ناديا عاما جلست في احدى جوانبه امرأة من نساء التهتك والبغاء وجعلت تدير عينيها فيمن حولها من الفتيان كما يدور الجزار بين كباشه ويستسمن ما حوله من نعاجه حتى يقع نظرها على أحد اولئك الاغرار فما هو الا ان يراها تديم النظر اليه

ويرى ان حبائل لحظها قد علقت في فؤاده حتى ينهض اليها مباهيا بنفسه مفتخراً باختياره دون غيره وهو لا تكاد تسعه الدنيا سروراً بانتقائه وعزة بانتخابه وان جماله قد راق في عينيها دون سائر رفقائه ثم يجلس امامها جلسة المتأدب الخاشع فتقابله بنظرات المتملق الخادع ثم تدور بينهما رسل العيون وتختلف لحظات الابصار وقد اسكره الغرور فصار ينظر اليها من عين قلبه واسكرتها خمرة الفوز عليه فصارت تنظر اليه من طارف عينيها ثم يبدأ هناك التمثيل المحزن ويتخذ ذلك المسكين في تلك الرواية الدور المضحك فيذيب فؤاده غراما ويستنزف قريحته منادمة واسترضاء ويفيض نفسه على قدميها حبا صحيحا وودا خالصا ويلقي جوهر قلبه بين يديها كلاما صادقا وغزلا حقيقا ويستفرغ خزائن صدره لديها عبارات رقيقه وادبا رائعا ويتفنن في ارضائها ومنازلتها تفننا يخرج من صميم فؤادها ويستقطر ماء ذهنه وهو يحسب انه قد ملك السعادة بقربها ودانت له الجنة.

بدنوها وتجلت له زخارف الحياة فى محياها فيزداد لديها تهطراً ويذوب بين يديها صبابة وغراماً يخرج من قلب طاهر وفكر سليم فيرن منها فى أذن فاسدة ثم لا يتعداها الى ذلك القلب الاثيم وهو يحسب انه يهز فؤادا حساساً وانه يغازل نفسا طيبة وان كل ما يخرج من قلبه يقع فى قلب نظيره صبابه وهياماوفاته ان الجالسة امامه تمثل الخداع والغش عليه وانها لا يكلمه الا لسانها ولا تنظر اليه سوى عينيها ولا يبلغ كلامه الا أبعد أذنيها وانها تموت عليه ضحكا وهو يموت عليها غراما وتعكس معانى اقواله صدى مقلداً بعد ان تصلها صوتاً حياً يخرج من اعماق القلب وتنطق به شفاه الضمير وانها آلة مرنة تلتوي تحت غمز انامله فيحسبها قد اطمأنت على الشكل الذى يريد ثم لا يلبث أن يتركها حتى تعود الى مثل ما كانت عليه. فيناجيه لسانها بالحب وقلبها لا يدرى شيئاً مما تقول وتلقى عليها مقلتاها نظرات الهوى ونفسها بعيدة عن تلك النظرات وتذرب أقوالها لديه رقة وصبابة وفؤادها من وراء ذلك أقسى من الجلمود وتعده مواعيد الامانة والوفاء وفكرها مشغول كيف تسلبه وباية طريقة تتخلص منه حتى يقوم من امامها وهى تضحك عليه ضحك عرقوب وينصرف مسروراً بانخداعه وغروره كأن لم تبق حاجة فى نفس يعقوب

ولقد كان فى امكان ذلك الفتى ان يتقرب من تلك البغي وينال

من مودتها ما يريد باذل من المال الذى يبذله على تلك الصورة وبدون ذلك الغرام الذى يبذل عليه ثمرات الفؤاد ولكن الانسان خلق للحب وخلق القلب للصبابة والهوى كما خلقت العين للنور وكما خلق الصدر للاستنشاق النسيم فهو لا يلذه قرب الغوانى ولا يروقه دنو الحسان الا اذا كان الحب مقدمة القرب وكانت الصبابة رائد ذلك الدنو والائتلاف وما أطيب بذل المال ينفق فى كل سبيل الا فى هذا السبيل وما اغلى قلب المرأة يؤخذ مجانا وما أرخصه اذا أخذ بالمال الجزيل

فاذا كان ذلك خلق القلب وعلى هـذا فطر الانسان فما بال الفتى يوقف نفسه فى هذا الموقف الدنىء تحت طائلة الخداع وذلة السحر والهوان مضافا اليهما عار الجهالة ونقص الادراك ويترك عشرة فتاة اديبة ذات خدر اذا نطق فؤاده لديها بحرف اجابه فؤادها بحروف واذا شهر من لحظها بسيف شهرت من الحاظه بسيوف واذا كان لغيرها من قبلها كانت له وحده دون سواه واذا بسطت لديها قلبه وهواه بسطت لديه اصفي من قلبه وهواه أليس ذلك خيرا من امرأة يحبها فتحب سواه او لا تحب احداً واذا ناداها لم تجب نداءه الا خداعا ولا يجيبه من فؤادها غير الصدى وهل تستوى الظلمات والنور ام هل تستوى الضلالة والهدى.

من أب الى ابنه

مقتطفات مقتطعه من رسائل لجرجى زيدان

(كتبها فى سنة ١٩٠٨ الى ابنه عقب دخوله الجامعة الاميركية ببيروت)

. . . كتبت اليك أول أمس وأبنت لك ما كان لكتابك الاول من التأثير فى ، وقد كنت انتظر ذلك قياساً على ماشعرت به أنا من الوحشة حين فارقت اهلى منذ ٢٥ سنه وأرجو أن يأتينى كتابك الثاني وفيه مايطمئن القلب . وهذا عهدى بك ، وانت عاقل ، أن توفق بين نفسك وما يحيط بك من الاحوال فلا تطلب أن تتغير تلك الاحوال حتى توافق مرادك . . . فاذا لم يتم لك ذلك شقيت . . . ذلك هو الفرق بين واسع الصدر وضيق الخلق فواسع الصدر يطبق نفسه وأحواله على البيئة والظروف التى تحيط به وهذا يدل على عقل كبير . . . وأما الذى ينتقد كل ما يحيط به فلا يعجبه شيء من الأمور التى تتعلق به ولا يعجبه ما يقوله الناس عنه ولا ما يريدونه منه ولا يعجبه معاملة الناس له الا كما يريد فهذا تعس شقى . . .

. . . لا تزال على مايظهر تستعظم الكتابة الى مرتين فى الاسبوع وأنا لو وجدت كل يوم بريد لكتبت كل يوم . . . فافعل أنت ذلك وأطل كتبك ما استطعت واشرح لى ماتراه أو مايخطر لك من أى وجه وفى حال . واعلم انك تكتب الى صديق

يحبك ويغار على مصلحتك لا الى والده يلتمس أن تهابه وتخفى عنه شيئا من امورك . ولا اظنك تجهل انى منذ سنتين أو أكثر صرت أعاملك معاملة الصديق لصديقه . . وفى سنك كنت جبانا ولكننى لم أكن أجد من يشجعنى ولا من يشير على أو ينبهنى الى نقص فى ولو وجد فوق رأسى وأنا فى مثل عمرك من ينبهنى الى نقائصى لوفرت على نفسى تعب سنين وتعجلت النجاح أعواما . فاستفد أنت من هذه الفرصة . ان العمل فى هذه الدنيا يحتاج الى جرأة واقدام كما يحتاج الى الثبات والصبر وكما يحتاج الى التعقل والصدق . . . لا ينبغى أن يطول الوقت قبل أن تتعود المدرسة واكابرها وتلامذتها . فان الرجل الحقيقى قوى الارادة من يطبق نفسه على الوسط الذى يوجد فيه ، ان ذلك دليل على القوة الحيوية فى الانسان واشبه شىء بالمرونة فى الجماد Elasticity . فالمرونة في الاجسام الحية تقوى فى الشبان ومن في معناهم من الاقوياء وأريد بالمرونة مرونة البدن والعقل . فالشاب اذا قرصته فى عضده مثلا فحالما تترك العضد يعود اللحم الى ما كان عليه وأما الشيخ فاذا قرصته يطول زمن عوده الى أصله . واللحم الميت لا يعود اذ لا مرونة فيه . واعتبر ذلك فى العقول : فصاحب العقل الكبير يهون عليه تطبيق تصوراته واحكامه على جليسه او عشيره ولو كان فى الحقيقة بعيداً عن طبعه او عاداته . وهذا هو الفرق بين الناس فى ارضاء الناس

او عدم ارضائهم فالذين يرضونهم هم اصحاب المرونة العقلية الذين يستطيعون تكييف تصوراتهم واحكامهم حتى يفهموا جليسهم ويفهموه . وهو مايعبر عنه بقولهم Common Sense فكن انت كذلك تكسب ثناء القوم وقلوب عشرائك وكن مع ذلك محافظاً على مبادئك فان المرونة حسنة وممدوحة فى التصورات والاحكام ولكنها مكروهة وسيئة فى الآداب والاخلاق . فهذه لابد من المحافظة عليها والثبوت فيها ثبوت الجبال . فمجاملة الناس لاينبغي أن تتعدى الملاطفة فى الحديث واختيار مايناسب المقام من الاقوال والامثال او الملاطفة فى المعاملة لرفع الاذى بقدر الامكان . اما ماوراء ذلك فيخشى منه ان يتعدى الى الكذب والرياء والتذبذب ...

.. يسرني سرورك لسماع اسم والدك فى معرض المدح وهذا طبيعي ... ونحن ياحبيبي لم نستحق مثل هذه الكلمة تقال على هذه الصورة الا بعد ان اذبنا الدماغ وانهكنا القوي فى السهر والاجهاد لان العصر الذى نشأنا فيه غير الذى انت فيه . فانه اسهل عليك كثيراً أن تنال مثل هذا المقام وارفع منه بتعب اقل ووقت اقصر ... واما اقصى مرادي ومتمناي فهو ان تبقى متمتعاً بالصحة والعافيه وان يكون نفسك مصوناً وسمعتك شريفة وان تكون قريبا من قلوب الناس بحسن اخلاقك ...